مؤشرات جودة الحياة

دراسة مقارنة بين التصور القرآني والمعايير الدولية

د. لينا علي سلامة القرعان

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة، كلية الشريعة، جامعة القصيم.

leenaguran@gmail.com

ملخص البحث: تناول البحث دراسة مقارنة لمؤشرات جودة الحياة بين التصور القرآني (من خلال سورة النحل)، والمعايير الدولية (لمنظمة الصحة العالمية، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، والاتحاد الأوروبي). واعتمد على المنهج الاستقرائي والتحليلي المقارن لبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين التصوّرَين، وقد أظهرت نتائج الدراسة أن سورة النحل تُقدّم إطارًا متكاملًا لجودة الحياة، يجمع بين المؤشرات الفردية (الذاتية) والمجتمعية (الموضوعية)، حيث يُشكّل الإيمان الأساسَ الذي تنطلق منه باقي المؤشرات، وتتباين منهجيات المؤسسات الدولية في قياس جودة الحياة: حيث تركّز منظمة الصحة العالمية على المؤشرات الذاتية المتعلقة بصحة الفرد، بينما تعطي منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية أولوية للمؤشرات الموضوعية المجتمعية كالتعليم والدخل والبنية التحتية. ويأتي منهج الاتحاد الأوروبي تكامليًا، جامعًا بين البُعدين مع تركيز نسبي على المؤشرات الموضوعية. وتتقاطع مؤشرات المنظمتين الأخيرتين في جوانب عديدة، على عكس مؤشرات الصحة العالمية الأكثر تخصصًا. وفي ضوء هذه النتائج، أوصى البحث استلهام نموذج من التصور القرآني في سورة النحل مزود بأدوات القياس الدولية؛ ليكون أكثر شمولًا وقابلية للتطبيق؛ للحصول على جودة حياة مستدامة.

الكلمات المفتاحية: جودة الحياة، مؤشرات، سورة النحل، معايير دولية، دراسة مقارنة.

Indicators of Quality of Life:

A Comparative Study Between the Qur'anic Conception and International Standards

Dr. Lina Ali Salameh Quran

Qassim University College of Sharia- Department of Islamic Culture Kingdom of Saudi Arabi

leenaguran@gmail.com

Abstract: This study provides a comparative analysis of quality-of-life (QoL) indicators, contrasting the Qur'anic conception—as derived from Surah al-Nahl- with international standards established by the World Health Organization (WHO), the Organization for Economic Co-operation and Development (OECD), and the European Union (EU). Employing an inductive, analytical, and comparative methodology, the research identifies key points of convergence and divergence between these frameworks.

The findings demonstrate that Surah al-Nahl offers a comprehensive framework for QoL that integrates both subjective (individual) and objective (societal) indicators, with faith (Iman) serving as the foundational element from which all other indicators emanate. Furthermore, the study highlights distinct institutional approaches: while the WHO focuses primarily on subjective health-related indicators, the OECD prioritizes objective societal dimensions such as education, income, and infrastructure. In contrast, the EU adopts an integrative model that balances both dimensions, albeit with a relative emphasis on objective metrices.

In light of these results, the study recommends drawing inspiration from the Qur'anic model in Surah al-Nahl, supplemented by contemporary international measurement tools. Such an approach aims to develop a more holistic and applicable framework for achieving sustainable quality of life.

Keywords: Quality of Life; Qur'anic conception, Surah al-Nahl; International Standards; Comparative Study.

مؤشرات جودة الحياة: دراسة مقارنة بين التصور القرآني والمعايير الدولية

د. لينا علي سلامة القرعان

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، مُسَخِّرِ الكون، وخالِقِ الإنسان في أحسن تقويمٍ، المتفضِّلِ على عبادِه بأنواع النِّعَم. والصلاة والسلام على سيِّدنا ونبيِّنا محمدٍ، المعلم الأول المبعوثِ رحمةً للعالمين.

تسعى البشرية جمعاء –على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول– إلى تحقيق جودة الحياة أو ما يُعرف بالرفاهية والسعادة الإنسانية. وبالرغم من أن جذور هذا المفهوم وضعت منذ العصر اليوناني، فإنه حتى اليوم لم يتفق العلماء والباحثون عبر مختلف التخصصات على مفهوم موحد لجودة الحياة، ولا على أهدافها ومؤشراتها. فقد تباينت وجهات النظر، فبعضها ركّز على العامل الاقتصادي كمستوى الدخل، بينما أَولى آخرون أهمية لنوعية الخدمات المقدمة سواءً صحيةً أو اجتماعية.

ولقد وضع الله عز وجل منهجًا متكاملًا للحياة، يقوم على هدفين أساسيين: الأول، المتمثّل في الطاعة الكاملة لله، كما في قوله تعالى:﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البَقَرَة : ٣٨]. والثاني: العمل لتحقيق الاستقرار والتمتع بطيّبات الحياة الدنيا بما يتوافق مع الشرع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأَعْرَاف : ٢٤].

وتطرح سورة النحل مفهوم "الحياة الطيبة" كنموذج كلّي لجودة الحياة، يرتكز على استقرار الوجود الإنساني، وتحقيق التكامل بين مقومات العيش الكريم والمتع المشروعة. كما في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ ﴾ [النَّحل : ٩٧] .

ويسعى هذا البحث إلى استخراج مؤشرات جودة الحياة "الحياة الطيبة" كما تقدمها سورة النحل، ومقارنتها مع المؤشرات الدولية المعتمدة (مثل مؤشرات منظمة الصحة العالمية، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، والاتحاد الأوروبي)، وذلك لتحديد أوجه التشابه والاختلاف بين التصور القرآني، والمعايير العالمية المعاصرة في فهم جودة الحياة، وتحديد مؤشراتها.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

يشهد العالم حركةً بحثيةً ومؤسسيةً واسعة تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، وذلك عبر البحث عن مؤشراتٍ علميةٍ لقياس مستوى رضا الأفراد عن حياتهم، وعن الخدمات والمرافق التي تقدّمها الدول. وقد تجلّى هذا الاهتمام من خلال تشكيل فرقٍ بحثيةٍ متخصصة، وعقد مؤتمرات علميةٍ دولية؛ لدراسة، وتطوير مؤشرات جودة الحياة.

وبالرغم من جهود المنظمات الدولية والعالمية في تحديد وقياس مؤشرات جودة الحياة، فإن الواقع يشير إلى وجود فجوةٍ واضحةٍ بين هذه الجهود والواقع الحالي. إذ لا تزال معدلات الانتحار مرتفعةً في دول تتمتع بمستوى دخل فردي عالٍ [(١)]، كما تكشف الفجوات الاقتصادية والبيئية والاجتماعية المستمرة عن قصور هذه المؤشرات في الإحاطة بالتعقيد الحقيقي للرفاه البشري، مما يؤكد الحاجة إلى نماذج أكثر شمولًا وعمقًا تربط بين الجوانب المادية والمعنوية للحياة.

(١) تعد النرويج ضمن أعلى الدول في معدلات الانتحار وفقًا لأرقام منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية عام ٢٠١٤م، لم ينخفض معدل الانتحار في النرويج بين عامي ١٩٩٥م و٢٠١٥م، على الرغم من أنّ هذه الدولة هي من أسعد دول العالم، وتتمتّع بوضع اقتصادي أفضل حتى من الدول الإسكندنافية الأخرى، كما تشير الدراسات الوبائية المنشورة في "مجلة الجمعية الطبية النرويجية" (Tidsskriftet) إلى أن معدل الانتحار في النرويج ظل ثابتاً تقريباً ولم يشهد انخفاضاً ملموساً خلال هذه العشرين عاماً.المصادر: ٢٠١٤، ٢٠١٥، و٢٠٢٣ **OECD iLibrary**:Health at a Glance
https://www.oecd.org/content/dam/oecd/en/publications/reports/٢٠٢٣/١٢/norway-country-health-profile-٢٠٢٣_٨febbd٢٢/٢٥٦fdvcf-en.pdf
https://tidsskriftet.no/en/٢٠١٩/٠٨/kronikk/why-suicide-rate-not-declining-norway#:~:text=Despite%٢٠these%٢٠efforts%٢C%٢٠the%٢٠suicide%٢٠rate%٢٠has,suicide%٢٠rate%٢٠%E٢%٨٠%٩٣%٢٠apparently%٢٠to%٢٠no%٢٠avail.

من هنا، تبرز المشكلة البحثية في الحاجة إلى بناء نموذجٍ تأصيلي شاملٍ لمؤشرات جودة الحياة، يستند إلى التصور الإسلامي، ويتم مقارنته مع النماذج الدولية، وذلك لوضع مؤشراتٍ أكثر توازنًا توضّح الاحتياجات الحقيقية للإنسان، وتصوّر واقعه بشكلٍ متكامل.

أسئلة الدراسة:

١- ما مفهوم جودة الحياة وفق التصور القرآني ولدى المعايير الدولية؟

٢- ما مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني في "سورة النحل"؟

٣- ما مؤشرات جودة الحياة لدى المعايير الدولية؟

٤- ما أوجه الشبه والاختلاف وفق التصور القرآني بين مؤشرات جودة الحياة والمعايير الدولية؟

أهداف الدراسة:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- التعريف بمفهوم جودة الحياة من منظور إسلامي كما يستنبط من النصوص القرآنية، ومقارنته بالمفهوم المتداول في المعايير والفكر الغربي الحديث، لتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف الجوهرية في التعريف.
- استقراء وتحليل آيات سورة النحل للكشف عن المؤشرات الأساسية التي تبنى عليها جودة الحياة من منظور قرآني، مثل النعم المادية والمعنوية، والأمن، والعلم، والحلال، والتدبر في الكون، مع تصنيف هذه المؤشرات بشكل منهجي.
- حصر المؤشرات العالمية المعتمدة لقياس جودة الحياة (مثل مؤشرات الأمم المتحدة، منظمة الصحة العالمية، منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية)، والتي تشمل الجوانب الاقتصادية، والصحية، والتعليمية، والبيئية، والاجتماعية.

- إجراء دراسة تحليلية مقارنة بين مؤشرات جودة الحياة المستنبطة من سورة النحل ونظيرتها في المعايير الدولية، لإبراز نقاط الاتفاق ونقاط والاختلاف، والخروج بمنظور متكامل يجمع بينهما.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذا البحث من عدة جوانب:

- تقديم إضافة علمية في حقل دراسات جودة الحياة، من خلال بيان مؤشراته في سورة النحل، وإثراء البحوث الأكاديمية بنموذج إسلامي مختلف بنظرته عن المعايير الدولية.

- تزويد المسؤولين وصُنّاع القرارات، والأفراد، بإطار عملي، ومؤشرات واضحة، يمكن استخدامها في التخطيط للسياسات العامة، أو في برامج التنمية المجتمعية، أو على مستوى الحياة الشخصية.

منهج الدراسة:

استخدمت الباحثة في هذه الدراسة المنهجين التاليين:

- المنهج الاستقرائي: وهو منهج يستند إلى عملية استدلال عقلي تنطلق من تتبع الجزيئات للوصول إلى أحكام كلية وقواعد عامة [٢]. ويُعرّف إجرائياً في هذه الدراسة بأنه تتبع الآيات القرآنية الواردة في سورة النحل والمتعلقة بالنعم ومقومات العيش، وتحليلها لاستنباط مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني.

- المنهج التحليلي المقارن: وهو ذلك المنهج الذي يعتمد على المقارنة في دراسة الظاهرة وتحليلها، ثم يبرز أوجه الشبه والاختلاف فيما بين ظاهرتين أو أكثر [٣].

(٢) عبيدات، ذوقان؛ وعدس، عبد الرحمن؛ وعبد الحق، كايد. البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه (ط. ٢٠). عمّان، الأردن: دار الفكر للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠، ص ٤٧.

(٣) عبد السلام، محمد، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، النور للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م، ص١٩٥.

– منهجية استخراج مؤشرات جودة الحياة من سورة النحل:

اعتمدت الباحثة المنهجية التالية:

أولاً: تحديد الآيات الكريمة في سورة النحل ذات الصلة بمفهوم جودة الحياة، استناداً إلى المعايير الموضوعية الموضحة في الدراسة.

ثانياً: تحليل الآيات وتفسيرها لاستخراج المفاهيم الجوهرية التي تشكل عناصر جودة الحياة.

ثالثاً: تحويل تلك المفاهيم إلى مؤشرات قابلة للقياس، وذلك وفق ضابطين: وجود دلالة شرعية صريحة، وإمكانية إسقاطها كمؤشرات تطبيقية معتبرة في أدبيات جودة الحياة المعاصرة.

خطة البحث:

– المقدمة.

– أهداف البحث وأهميته.

– المبحث الأول: مفهوم جودة الحياة لدى التصور القرآني والمعايير الدولية.

– المطلب الأول: التعريف بسورة النحل، وبالمنظمات العالمية والدولية.

– المطلب الثاني: مفهوم جودة الحياة لغة.

– المطلب الثالث: مفهوم جودة الحياة وفق التصور القرآني.

– المطلب الرابع: مفهوم جودة الحياة وفق المنظمات الدولية والعالمية.

– المبحث الثاني: مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني.

– المطلب الأول: مفهوم مؤشرات جودة الحياة.

– المطلب الثاني: مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني.

– المطلب الثالث: مؤشرات جودة الحياة لدى المنظمات العالمية.

– المبحث الثالث: أوجه التشابه والاختلاف بين مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني والمعايير الدولية.

– المطلب الأول: من حيث المفهوم.

– المطلب الثاني: من حيث التكامل.

– المطلب الثالث: من حيث التنوع.

– المطلب الرابع: من حيث شمولية التطبيق.

– المطلب الخامس: من حيث التجديد والمراجعة.

–النتائج والتوصيات

محددات الدراسة:

تقتصر هذه الدراسة على استنباط مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني في "سورة النحل"، ومقارنتها مع المعايير الدولية مثل:

– منظمة الصحة العالمية (WHO)[٤].

(٤) منظمة الصحة العالمية، جودة الحياة، https://www.who.int/tools/whoqol

- منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)[٥].
- الاتحاد الأوروبي (Eurostat –EU)[٦].

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والتقصي، لم تجد الباحثة أي دراسة عن مفهوم جودة الحياة وجودتها: دراسة مقارنة بين التصور القرآني والمعايير الدولية؛ لكن وجدت الباحثة عدة دراساتٍ تناولت موضوع جودة الحياة بشكل مختلف منها:

أولًا: الدراسات التي تناولت جودة الحياة وفق التصور القرآني:

تناولت **دراسة الصباحي**(٢٠٢٠م)[٧] مفهوم جودة الحياة من منظور قرآني، حيث استخدمت منهج الاستنباط والتحليل لاستخلاص أبعاد المفهوم. وتوصلت إلى أن جودة الحياة تُعرّف بـ "قدرة الإنسان على التعايش مع نفسه ومجتمعه لأداء دوره في بناء الحياة"، وأن تحقيقها مشروط بالتوازن بين البعد الروحي والمادي للإنسان. كما أوصت بضرورة توجيه الخطاب الديني والإعلامي نحو الوسطية وربطها بقضايا المجتمع وفق الرؤية الإسلامية، سعيًا لتحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي والانسجام مع السنن الكونية التي أودعها الله تعالى.

(٥) منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، مرصد بيانات الرفاهية التابع لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. https://www.oecd.org/en/data/tools/well-being-data-monitor/better-life-index.html

(٦) الاتحاد الأوروبي، جودة الحياة، فئة: جودة الحياة – شرح الإحصائيات – يوروستات مؤشرات جودة الحياة – شرح الإحصائيات – يوروستات

(٧) الصباحي، يحيى مقبل صالح. "جودة الحياة من منظور القرآن الكريم." مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ع١٨ (٢٠٢٠):ص٦٨

تقدم **دراسة حموني** (٢٠٢١م)[٨] رؤية إسلامية لمفهوم الجودة، حيث تربطه بالمفاهيم الشرعية للإتقان والإحسان والتجويد، مؤكدةً أن هذا الربط يحمي المفهوم من الانحراف نحو النفعية المادية المجردة. وتقسم معايير تقييم جودة الحياة إلى دنيوية (كالدقة والاتقان)، وأخروية (كالشعور بالمسؤولية والرقابة الإلهية)، مستندةً في ذلك إلى النصوص الشرعية التي تؤسس لعلاقة عضوية بين إحسان العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

أما دراسة الشمري (٢٠٢٣م)[٩] فتقدم نموذجًا ثنائي الأبعاد لجودة الحياة في الإسلام، حيث يقسمها إلى بعدين: عالم الغيب (المتطلبات الروحية والإيمانية)، وعالم الشهادة (المتطلبات المادية والاجتماعية)، مؤكدةً أن تحقيق الجودة يتم عبر تنمية جميع جوانب الشخصية الإنسانية، وتلبية احتياجات كل مرحلة نمو وفق الضوابط الإسلامية، مع التأكيد على أن المفهوم في جوهره إنساني، يرتبط بالذات أكثر من ارتباطه بالأشياء المادية.

وتتفق هذه الدراسة مع دراسات الصباحي (٢٠٢٠م)، وحموني (٢٠٢١م)، والشمري (٢٠٢٣م) في تناولها للإطار العام لمفهوم "جودة الحياة"، إلا أنها تنفرد عنها في الهدف والمحتوى؛ إذ تركز الدراسة الحالية على استنباط المؤشرات من سورة النحل تحديدًا، وصياغتها بصورة قابلة للقياس، مع إجراء مقارنة منهجية بالمعايير الدولية. كما تتبع خطوات إجرائية تهدف إلى إبراز الخصائص الفريدة للتصور القرآني في تحقيق السعادة الإنسانية الشاملة؛ وهي جوانب لم تُغطَّ بوضوح في الدراسات السابقة.

(٨) حموني، فاطمة. "جودة الحياة ومعاييرها الإسلامية." مجلة المعيار مج٢٥, ع٥٨ (٢٠٢١)، غير منشورة.

(٩) الشمري، عياده بن عبدالله خالد العياده. "أبعاد جودة الحياة في ضوء نظرة الإسلام للإنسان وللحياة." مجلة الآداب للدراسات النفسية والتربوية مج٥, ع٤ (٢٠٢٣): ٢١٦ .

المبحث الأول

مفهوم جودة الحياة وفق التصور القرآني والمعايير الدولية

المطلب الأول: التعريف بسورة النحل:

سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية، وسورة النحل من السور المكية: التي كان نزولها قبل الهجرة النبوية الشريفة(١٠). وتُعرَف هذه السورة بين العلماء باسم "سورة النحل"، وهو الاسم المعتمد في المصاحف وكتب التفسير والسنة، وقد سُمّيت بذلك لأنها السورة الوحيدة في القرآن التي ذُكر فيها لفظ "النحل" صراحةً. كما تُعرَف أيضًا باسم "سورة النّعم"؛ لأنها تُفصّل نعم الله العديدة على الإنسان، وقد أشارت الآيات إلى أن هذه النعم أكثر من أن يُحصيها الإنسان أو يُعدّها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل : ١٨].

وتتجلّى في سورة النحل رؤيةٌ توجيهيةٌ شاملة لإدارة الحياة الإنسانية، يمكن استقراؤها عبر مجموعة من المؤشرات التي سيتم الكشف عنها، والتي تُشكّل في مجموعها مسارًا نحو تحقيق "الحياة الطيبة"، وسيتم تفصيل هذه المؤشرات وتحليل دلالاتها في المباحث اللاحقة إن شاء الله.

المطلب الثاني: التعريف بالمنظمات العالمية:

أولًا: منظمة الصحة العالمية (WHO)(١١): هي وكالة متخصصة تابعة للأمم المتحدة، تأسست في السابع من شهر إبريل ١٩٤٨م، والمقر الرئيسي لها في جنيف، سويسرا، وهي السلطة التوجيهية والتنسيقية في مجال

(١٠) طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧-١٩٩٨م.، ج٨، ص٩١.

(١١) منظمة الصحة العالمية، الموقع الرسمي لأدوات جودة الحياة لمنظمة الصحة العالمية: https://www.who.int/tools/whoqol

الصحة الدولية داخل منظومة الأمم المتحدة. ويتمثل دستورها في أن "الصحة هي حالة من اكتمال السلامة بدنيًا وعقليًا واجتماعيًا، لا مجرد انعدام المرض أو العجز".

وقد طوّرت منظمة الصحة العالمية في تسعينيات القرن الماضي مفهومًا ومقياسًا خاصًا بها لجودة الحياة، المقياس الأشهر والأكثر استخدامًا على مستوى العالم، وهو استبيان جودة الحياة لمنظمة الصحة العالمية (WHOQOL)، وخاصة نسخته المختصرة WHOQOL-BREF.

ثانيًا: منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)[١٢]: وهي منظمة حكومية دولية تأسست عام ١٩٦١م، خلفًا لمنظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي، ويقع مقرها الرئيسي في باريس، فرنسا. وتضم المنظمة حاليًا (٣٨) دولة عضو، معظمها من الاقتصادات المتقدمة ذات الدخل المرتفع، بالإضافة إلى بعض الاقتصادات الصاعدة. وتتمثل رسالتها الأساسية في تعزيز السياسات التي تحسّن الرفاه الاقتصادي والاجتماعي للناس في جميع أنحاء العالم. وتعمل كمنتدى للحكومات لمقارنة الخبرات السياسية، والإجابة على المشاكل المشتركة، وتحديد الممارسات الفضلى، وتنسيق السياسات المحلية والدولية.

وفي أعقاب الأزمة المالية العالمية ٢٠٠٨م –٢٠٠٩م، برز لدى المنظمة إدراك عميق بأن النمو الاقتصادي –خاصةً الناتج المحلي الإجمالي– وحده لا يكفي لقياس التقدم الحقيقي للمجتمعات، فتبنّت رؤية أوسع للرفاهية تركز على حياة الناس نفسها، وهدفها هو الانتقال من قياس "إنتاج" الثروة إلى قياس "رفاهية" السكان، مما يوفر للحكومات أدوات أفضل لصنع سياسات أكثر فعالية واستدامة تعالج احتياجات المواطنين الحقيقية.

(١٢) منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، المرصد بيانات الرفاهية، https://www.oecd.org/en/data/tools/well-being-data-monitor/better-life-index.html وكيف حال الحياة ٢٠٢٤م https://www.oecd.org/en/publications/how-s-life-٢٠٢٤_٩٠ba٨٠٤a-en.html والرفاه الإقليمي لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية: مقياس أدق للحياة. https://www.oecdregionalwellbeing.org/

ثالثًا: الاتحاد الأوروبي (EU)[١٣]: وهو شراكة سياسية واقتصادية فريدة بين (٢٧) دولة أوروبية. وقد نشأ في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ لتعزيز التعاون الاقتصادي والسياسي وضمان السلام الدائم في القارة. وقد تطور من مجرد اتحاد تجاري إلى كيان سياسي واقتصادي شامل، يعدّ تحسين جودة الحياة للمواطنين هدفًا أساسيًا وشرطًا لنجاح المشروع الأوروبي برمته. لذلك، انتقل التركيز من مجرد قياس النمو الاقتصادي إلى مراقبة النتائج الاجتماعية والبيئية الشاملة. ويرتبط هذا الاهتمام ارتباطًا وثيقًا بسياسة التماسك الأوروبية التي تهدف إلى تقليل الفوارق التنموية بين المناطق والدول الأعضاء.

أما اختيار هذه المنظمات الدولية (كمنظمة الصحة العالمية، والتعاون الاقتصادي والتنمية، والاتحاد الأوروبي) فيعود إلى ريادتها في تحديد مفهوم جودة الحياة، وتطوير مؤشرات قابلة للقياس وتطبيقها على نطاق دولي واسع.

وهذا الانتشار المؤسسي يُتيح للدراسة الاعتماد على إطار عملي مُجرَّب، مما يُعزز موضوعية المقارنة، ويُحقِّق الهدف الثاني من البحث، وهو رصد أوجه الاتفاق والاختلاف بين التصور القرآني والمعايير الدولية.

المطلب الثالث: المقصود بمفهوم جودة الحياة وفق التصور القرآني:

أولًا: تعريف الجودة: لغة: اتفق ابن منظور [١٤] وعمر[١٥] على أن الجودة جاءت بمعنيين أولهما: الجيد من القول والفعل، والثاني: بمعنى أجاد العمل أتقنه. وأضاف صاحب الفيروزآبادى لفظ جودة الفهم (في اصطلاح أهل النظر) : صحَّة الانتقالِ من الملزومات إلى اللوازم[١٦].

---

١٣) الاتحاد الأوروبي، جودة الحياة، فئة: جودة الحياة – شرح الإحصائيات – يوروستات مؤشرات جودة الحياة – شرح الإحصائيات – يوروستات

(١٤) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ. ، ج٣، ص٢٥٠.

(١٥) عمر، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤ هـ) بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصر، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م ، ج١، ص٤١٧.

(١٦) نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، [كُتِبَتْ مقدمتُها ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م]. ج١، ص١٤٦.

ونلحظ أن التعاريف جميعها تدل على الإجادة والإتقان، والوصول إلى الأفضل في جميع الجوانب الفكرية والقولية والفعلية، وأيضًا المهنية.

الجودة اصطلاحاً:

لا يوجد اختلاف جوهري بين المفهوم اللغوي للجودة ومفهومها الاصطلاحي؛ فكلاهما يتمحور حول الإتقان والإحكام. أما التباين الطفيف في التعريفات، فيعود إلى تنوع المجالات التي طُبق فيها المفهوم، سواء في التعليم أو الإدارة أو الاقتصاد. فمهما تنوعت التعريفات الاصطلاحية، فإنها تلتقي جميعها على حقيقة واحدة: هي إتقان العمل أو المنتج على نحو يُحقق رضا المستفيد ويُلبي احتياجاته. وهذا المعنى نفسه هو ما أكده بن داودية حين عرّف الجودة بأنها: "مختلف العمليات المؤهلة لإخراج أي عمل كان في صورة محسنة ومسددة ومتقنة لدرجة عالية"(١٧)

مفهوم جودة الحياة وفق التصور القرآني:

إن مفهوم جودة الحياة في التصور القرآني كما يعرفه الصباحي "قدرة الإنسان على التعايش مع نفسه ومجتمعه لأداء دوره في بناء الحياة"(١٨).

ويقصد به أيضًا: "جودة الأداء وإتقانه في كل مناحي الحياة"(١٩).

يُمثّل المفهوم الأول للجودة الحياة في التصور القرآني رؤيةً اجتماعيةً تُركّز على قدرة الإنسان على التعايش مع ذاته ومجتمعه، لأداء دوره في بناء الحياة. بينما يتّخذ المفهوم الثاني منحىً إجرائيًا تقنيًا، يجعل من جودة الأداء

(١٧) بن داودية، أحمد، الجودة من منظور إسلامي، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، المجلس العام للبنوك والمؤسسات المالية الإسلامية، ع٩٥، ٢٠٢٠م،ص ٩٨.

(١٨) الصباحي، يحيى مقبل صالح. "جودة الحياة من منظور القرآن الكريم." مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ع١٨ (٢٠٢٠):ص٦٩

(١٩) علي، كوثر عبدالله، التأصيل للجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة البحث العلمي للآداب، جامعة عين شمس– كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، ع٢٠، ج٩، ٢٠١٩م، ص٣٨.

والإتقان في جميع المجالات معيارًا أساسيًا. ويتكامل المفهومان معًا في الإجابة عن سؤالَين: الغاية "لماذا نعمل؟" والوسيلة "كيف نعمل؟"، مما يُجسّد الطبيعة الشاملة لمفهوم الجودة في الرؤية القرآنية.

وتعرّفه الباحثة في إطار التصور القرآني بأنه: تحقيق الاستقرار في الحياة والتمتع بالنعم الإلهية ضمن منهج متكامل، يربط الغايات بالمؤشرات، ويحدد الأدوات اللازمة للوصول إلى الغاية النهائية المتمثلة في "الحياة الطيبة"، والتي تُمثّل محصلة التوازن الشامل بين البُعدين المادي والمعنوي للحياة.

وقد بيّن ابن كثير في تفسيره أن "الحياة الطيبة" تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب .أما علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد فسرها بالقناعة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها السعادة، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله(٢٠).

وللوصول إلى الحياة الطيبة لا بد من اتباع المنهج الصحيح الذي يوضحه قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النَّحل : ٣٠]. قال أبو زهرة في تفسيره: للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، أي خصلة حسنة، وأثر حسن، فالثمرة من جنس العمل، فإذا كان العمل حسنًا كانت الثمرة حسنة، وهل ينتج الخير إلا خيرًا، وهل ينتج الإحسان إلا إحسانًا(٢١). ويعرف الإحسان: "بالتمام والإكمال وفعل الجيد وإتقان العمل وإخلاصه لله عز وجل، وبذلك تكون الجودة مظهرًا من مظاهر الإحسان وثمره من ثماره"(٢٢).

(٢٠) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٠٠ – ٧٧٤ هـ) ، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض — السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.ج٤،ص٦٠١.

(٢١) أبو زهرة، محمد بن أحمد، زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي،ج٨، ص٤١٦٦.

(٢٢) علي، كوثر عبدالله، التأصيل للجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة البحث العلمي للآداب، جامعة عين شمس– كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، ع٢٠، ج٩، ٢٠١٩م، ص٣٨.

وهنا تظهر علاقة طردية واضحة: فكلما اقترب الإنسان من المنهج الصحيح والقويم في حياته، ازدادت حياته استقرارًا وطمأنينةً.

مفهوم جودة الحياة وفق المنظمات الدولية العالمية:

عرفته منظمة الصحة العالمية: بأنه إدراك الفرد لموقعه في الحياة في سياق الثقافة وأنظمة القيم التي يعيش فيها، وعلاقته بأهدافه وتوقعاته ومعاييره واهتماماته(٢٣).

وعرفته منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية(٢٤): بأنه تمكين الحكومات من تصميم سياسات تحسّن الحياة الفعلية؛ بتجاوز المؤشرات الاقتصادية التقليدية –مثل الناتج المحلي الإجمالي– ليشمل مجموعة أوسع من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية التي تؤثر على رفاههم الحالي والمستقبلي.

وعرفه الاتحاد الأوروبي: بأنه مفهوم واسع يشمل عددًا من المؤشرات المختلفة، يشمل العوامل الموضوعية مثل: السيطرة على الموارد المادية، الصحة، حالة العمل، ظروف المعيشة والعديد من العوامل الأخرى– والتصور الذاتي الذي يمتلكه الشخص عنها. ويعتمد هذا بشكل كبير على أولويات واحتياجات المواطنين.

تختلف تعريفات جودة الحياة بين المنظمات الدولية بشكل ملحوظ؛ فتعريف منظمة الصحة العالمية يركز على تجربة الفرد، بينما ينصب اهتمام منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية على سياسات الحكومات، ويُقدم الاتحاد الأوروبي نموذجًا يجمع بين الاثنين. ومع ذلك، تُلاحظ الباحثة قصورًا واضحًا في هذه التعريفات، حيث تهيمن الجوانب المادية والملموسة على حساب الجوانب المعنوية (كالمعتقدات، القيم، الجمال)، مما يجعلها تدور في إطار منظور مادي بحت.

(٢٣) منظمة الصحة العالميةWHOQOL: قياس جودة الحياة، ١٩٩٤م https://www.who.int/tools/whoqol

(٢٤) لم تحدد منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية تعريفا محددا لجودة الحياة لكن تم استخلاص التعريف من خلال فهم تصورهم عن جودة الحياة مراقب بيانات الرفاهية في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ، منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية

المبحث الثاني

مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني والمعايير الدولية.

المطلب الأول: مفهوم مؤشرات جودة الحياة.

١-لغة: اتفقت المعاجم اللغوية كمعجم اللغة العربية المعاصرة(٢٥) ومعجم الغني(٢٦) إلى أن تعريف المؤشر يحتوي معنيين:

١-مُؤَشِّرُ الميزَانِ: أي لِسَانُهُ، إِبْرَتُهُ.

٢- عود من خشب أو حديد يمسك به الشّخص ليشير إلى مكان محدّد.

إلا أن معجم الغني أضاف معنًى آخر، وهو عَلاَمَةٌ تَدُلُّ كُلُّ إِشَارَاتِهَا عَلَى أَنَّ الْمَشَاكِلَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْحَلِّ. بينما أضاف المعجم المعاصر للمصلحات الاقتصادية لمفهوم المؤشر معنى أيضًا، كمفهوم لوحة مؤشر البورصة.

٢-تعريف المؤشرات اصطلاحًا:

عرفته منظمة الأمم المتحدة بأنه: متغير يستعمل لوضع إشارة على بند، أو متغير آخر للعودة إليها فيما بعد(٢٧).

---

(٢٥) عمر، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤ هـ) بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصر،الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م،ج ١، ص٩٥.

(٢٦) أبو العزم، عبد الغني، معجم الغني، معجم المغني - المجلد ١ - الصفحة ٢٢٤٢٥ - جامع الكتب الإسلامية https://ketabonline.com/ar/books/٢١٢٧٢/read?part=١&page=٢٢٤٣٧&index=٢٠١٥٣٩٤/٢٠١٥٤٤٠#p-٢١٢٧٢-٢٢٤٣٧-١

(٢٧) الاسكوا، الأمم المتحدة، المصطلح، https://www.unescwa.org/ar/sd-glossary/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٩٪٨٥٪D٨٪A٤٪D٨٪B٤٪D٨٪

وتعرفها منظمة اليونسكو بأنها: إطار من المؤشرات الموضوعية تهدف إلى قياس ومراقبة تقدم مساهمة الثقافة في التنفيذ الوطني والمحلي لأهداف وأجندة التنمية المستدامة(٢٨).

يتبيّن من خلال المقارنة أن تعريف الأمم المتحدة للمؤشر يُصوّره كأداة تقنية محايدة للأغراض المرجعية، بينما يتحوّل في تعريف اليونسكو إلى إطار عملي لقياس تأثير الثقافة في تحقيق التنمية المستدامة، مما يمنحه بعدًا قيميًا واستراتيجيًا أوسع.

٣- تعريف المؤشرات وفق التصور القرآني في سورة النحل:

تُعرِّف الباحثة المؤشرات في التصور القرآني (سورة النحل) بأنها: إشارات ودلائل تُظهر مستوى النشاط الإنساني في مجالٍ معين، والتي تُشكّل أساسًا لتقويم قوته واستمراره المستقبلي أو ضعفه وفشله. وسيتم تحليل هذه المؤشرات تفصيلًا إن شاء الله عند دراسة مؤشرات جودة الحياة في البحث.

المطلب الثاني: مؤشرات جودة الحياة وفق التصور القرآني.

من خلال التعريف السابق لمؤشرات جودة الحياة في التصور القرآني، يمكن استنباط مجموعة من هذه المؤشرات كما وردت في سورة النحل، وذلك بالاعتماد على فهم الآيات والاستعانة بالتفاسير المعتبرة. ويبقى هذا الاستنباط اجتهاديًا قابلًا للتطوير، فقد يأتي باحثون لاحقون بتحليلاتٍ أعمق أو مؤشراتٍ أوسع.

المؤشر الأول: الإيمان بالله.

أول مؤشرات جودة الحياة هو الإيمان بالله عز وجل، خالق هذه النعم والمتفضل بها على الإنسان. ومن دلائل قدرته أنَّ كل ما في السماوات والأرض خاضعٌ لإرادته وحدَه. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النَّحل : ٤٩].

(٢٨) مؤشرات اليونسكو الموضوعية للثقافة في أجندة ٢٠٣٠، مركز التراث العالمي – الثقافة | مؤشرات ٢٠٣٠ .

ويُعدُّ الإيمان في التصور القرآني منظومةً متكاملةً من المؤشرات التوافقية التي لا يُقبل بعضها دون بعض، إذ لا يكتمل إيمان المسلم، ولا يتحقق طمأنينة قلبه إلا بتوافرها مجتمعةً، وتفاعلها في مسيرة حياته:

- المؤشر الأول: الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ [النَّحل : ٥١].

- المؤشر الثاني: الإيمان بالملائكة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [النَّحل : ١٠٢]

- المؤشر الثالث: الإيمان بالكتب، قال تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النَّحل : ٤٤].

- المؤشر الرابع: الإيمان بالرسل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [النَّحل : ١١٣].

- المؤشر الخامس: الإيمان بالآخرة، قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [النَّحل : ٦٠].

- المؤشر السادس: الإيمان بالقدر، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾ [النَّحل : ٧١].

يُشكّل الإيمان بالله حجر الأساس لتحقيق جودة الحياة، فلا يُتصوّر استقرارٌ حقيقيٌّ، ولا تمتُّعٌ حقيقيٌّ بالنعم دون أن يتأسس كل منهما على الإيمان. وتتناسب قوة الجهد والعمل الهادف طرديًا مع عمق هذا الإيمان وصحته، مما يجعل من الإيمان الصحيح مدخلًا ضروريًا لأي سعيٍ جادٍّ لبلوغ أهداف الحياة وجودتها.

أما نتائج مؤشر عدم الإيمان وتقديم الدنيا على الآخرة، فقد جسّدها القرآن تحذيرًا صريحًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [النَّحل : ١٠٧].

فالآية لا تتحدث عن ضعف في الإيمان فحسب، بل عن تُصوِّر حالة الاستبدال الكامل؛ حيث تُقدَّم محبة الدنيا ومغرياتها على الآخرة. قال أبو زهرة: "إنهم (استحبوا الحياة الدنيا) إنما طلبوا حبها، فاستغرقت نفوسهم، ولم يفكروا في غيرها، وآثروها على الآخرة، فابتغوها بأي ثمن يقدم، ورضوا بأن يحطوا على هوى المشركين، ولو أغضبوا رب العالمين، وذكر الله سبحانه وتعالى سببًا ثانيًا، في قوله (وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) وذلك أنهم ساروا في طريق، واستمروا في حياة اللهو، والعبث وأغواهم الشيطان، حتى سد كل مسالك الهداية إلى قلبه، فكفر بأنعم الله، وأنكرها بعد معرفتها، ولم يشكر"(٢٩).

فالإيمان هو الدافع الأساسي لشعور الإنسان بالرضا والسعادة، ويعدّ المؤشر الأول من مؤشرات جودة الحياة، وهو مؤشر ذاتي، لكن تأثيره على المجتمع قوي، وهو سبب في تغير مجتمع بأكمله، والناظر في عصرين مختلفين كعصر الجاهلية يرى تأثير الإيمان على النفس أولًا، وعلى المجتمع ثانيًا، ويلحظ مدى التقدم والتطور الذي وصل إليه المسلمون بقوة إيمانهم بعدما كانوا في عصر الجاهلية قبائل متناحرة متناثرة، فأصبحوا بعد الإسلام أمة حضارية متكاملة.

ونستطيع قياس مؤشر الإيمان ضمن مؤشرات جودة الحياة من خلال مظهرين رئيسين: مدى توفير حرية ممارسة الشعائر الدينية للأفراد والمجتمعات، ومدى انتشار دور العبادة وجودة خدماتها. ويؤكّد هذان الجانبان معًا مستوى الحرية الدينية والبيئة الداعمة له في المجتمع.

المؤشر الثاني: العلم النافع.

منذ بدء الخليقة، ميّز الله تعالى الإنسان بنعمة العقل، والتي مكّنته من التعلم والمعرفة. فالعلم يُعدّ ركيزة أساسية في قياس مؤشرات جودة الحياة، فغريزة الإنسان تدفعه نحو التطوير والتحسين المستمر لحياته، وهو ما لا يتحقق إلا بالاعتماد على العلم، وقد زوّد الله الإنسان بالإمكانات والقدرات التي تُمكّنه من النهوض والارتقاء بمختلف مناحي حياته. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ

(٢٩) أبو زهرة، محمد بن أحمد (ت ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي، ج٨، ص٤٢٧٩.

﴿لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النَّحل : ٧٨] . قال ابن عاشور في تفسيره: "أي أنه أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في الناس حتى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة، وهذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، لأن بها إدراك الإنسان لما ينفعه وعمل عقله فيما يدله على الحقائق، ليسلم من الخطأ المفضي إلى الهلاك والأرزاء العظيمة، فهي نعمة كبرى"(٣٠).

لكن لا يمكن اعتبار العقل ووسائل الإدراك البشرية مصدرًا مكتفيًا بذاته للمعرفة، حيث تتفاوت أدوات الإدراك والقدرات العقلية، ويتأثر فهمه بالخلفيات والخبرات الشخصية، مما يجعله بحاجة دائمة إلى إطار مرجعي موضوعي قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النَّحل : ٨٩]، وقال جل وعز: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النَّحل : ٤٣].

ولا يقتصر دور العلم على رفع مستوى المعيشة والدخل المادي فحسب، بل يتعداه إلى إثراء نوعية الحياة ذاتها وتحسين مقوماتها الأساسية. وعليه، فإن مستوى التعليم في المجتمع، وحجم الاستثمار في البحث والتطوير، ومدى قدرة أفراده على التفكير النقدي والاستقصاء المعرفي، تُعدّ من المؤشرات الجوهرية في قياس جودة الحياة وتقدم الأمم. فتكريم العلم والمعرفة يتجلى منذ بداية الخليفة؛ فبعد خلق آدم عليه السلام مباشرة، علّمه الله الأسماء كلها، مؤكدًا على مركزية المعرفة في تكريم الإنسان. كما أن أول أمر إلهي نزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان "اقرأ"، مما يعزز مكانة العلم كمؤشر أساسي لجودة الحياة ومجتمع راق.

ويرتكز مؤشر العلم في قياس جودة الحياة على بُعدين رئيسين: ذاتي يتعلق بالفرد وقدرته على التعلم المستمر، وموضوعي يتعلق بالبيئة الداعمة للبحث والابتكار. وبناءً عليه، فإن قياس المؤشر تجاه العلم يجب أن يتوجه نحو

(٣٠) ابن عاشور، محمد الطاهر(ت ١٣٩٣ هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤ م،١٤٠٤ هـ.ج١٤، ص٢٣٢.

مستويين متكاملين: المستوى الأول، ويتمثل في ضمان تعليم مستمر وشامل مدى الحياة لجميع أفراد المجتمع. أما المستوى الثاني، فيتمثل في دعم البحث العلمي والتطوير التكنولوجي المستمر لمواجهة التحديات، وابتكار الحلول للمشكلات التي تعترض سبيل التنمية البشرية.

المؤشر الثالث: القيم الأخلاقية.

تُعَدُّ القيم الأخلاقية من أهم الدعائم التي تقوم عليها جودة الحياة، فهي تساهم في تحقيق الاستقرار، وتمتّع الإنسان بالنعم التي أوجدها الله. وقد بيَّن الله سبحانه مجموعة من هذه القيم لتحسين جودة الحياة على المستويين الفردي (الذاتي)، والمجتمعي (الموضوعي). كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النَّحل : ٩٠] فالآية الكريمة تُجسّد منهجًا توجيهيًا متكاملًا يجمع بين الأمر والنهي في بناء القيم الأخلاقية. يقول أبو زهرة في تفسيره(٣١): "فإن الأمر بالعدل يتضمن المصلحة العامة والمنفعة الشاملة، وأما الإحسان فيكون بين الخلطاء والعشراء، والتعامل الأحادي، ويكون الأمر بالإحسان بعد الأمر بالعدل انتقالًا من الأمر العام الذي هو صالح وواجب في كل الأحوال، وفي كل الأوقات إلى أمر أحادي تطيب له النفوس، وتتلاقى به بالمحبة والمودة، يكون التآلف والتراحم والتآخي في الجماعة. ويتابع بقوله: (وإيتاء ذي القربى) والمعنى معونتهم، وألا يضن عليهم بخير يقدمه لهم، وهو صلة الرحم التي أمر الإسلام بها، والإيتاء الإعطاء والأصل المال، ولكنه يشمل كل ما يكون خيرًا يسديه إليهم مالًا أو معروفًا".

أما عن النهي عن الأخلاق السيئة (الفحشاء والمنكر والبغي)، فقد وردت الآية لتحذير الإنسان من عواقبها المدمرة على الفرد والمجتمع. ويعرّف ابن عاشور(٣٢) "الفحشاء" بأنها اسم جامع لكل قول أو عمل تستفظعه النفوس لفساده من الآثام التي تفسد نفس المرء، من اعتقاد باطل أو عمل مفسد للخلق، والتي تضر بأفراد الناس أو تضر بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب، كما يعرف "المنكر" بقوله: هو ما تستنكره النفوس المعتدلة، وتكرهه

(٣١) أبو زهرة، زهرة التفاسير، مرجع سابق، ج٨، ص ٤٢٤٩.
(٣٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٥٧. بتصرف.

الشريعة من فعل أو قول. ويستكمل تفسيره لمصطلح "البغي"، مؤكدًا أنه شكل من أشكال الفحشاء والمنكر، ويُعرِّفه بأنه الاعتداء في المعاملة، سواء كان اعتداءً ابتدائيًا دون سبب كما في الغارات التي كانت وسيلة للكسب، أو اعتداءً برد فعل يتجاوز الحد الشرعي كما في الإفراط في العقاب. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النَّحل : ١٢٦].

فالقيم الإيجابية كالعدل والإحسان وتعزيز الروابط الاجتماعية تُعدّ ضرورية لبناء أي مجتمع مستقر وقادر على الاستمرار والنمو وتحقيق خططه وسياساته، حيث تعمل على تعزيز الثقة والتعاون بين أفراده. وفي المقابل، تشكّل القيم السلبية كالفحشاء والمنكر والبغي خطرًا على الأسس الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، حيث ترتبط جودة الحياة بسلامة المنظومة الأخلاقية للمجتمع؛ فالأخلاق هي النظام الذي يُحدّد مدى كفاءة وفعالية أي نظامٍ اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي في تحقيق الرفاه الحقيقي للإنسان.

ومن هذه القيم أيضًا الوفاء بالعهود حيث تعد من مؤشرات المهمة التي تقوم عليها جودة الحياة الأخلاقية؛ فالثقة المتبادلة تمثل أساسًا جوهريًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النَّحل : ٩١]. ويخلُص الشيخ الطنطاوي(٣٣) إلى أن نقض الأيمان قبيح في كل الأحوال، لكن قُبحه يتفاقم عندما يكون اليمين مؤكدًا ومغلظًا بهذه الصورة.

وفي حالات القوة والتمكين أيضًا، يظل المؤمن حريصًا على الوفاء بعهوده، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ ﴾ [النَّحل : ٩٢].

(٣٣) طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ - ١٩٩٨ م، ج٨، ص٢٢٣، بتصرف.

ويقول أبو زهرة(٣٤): وإن الوفاء بالعهد بين الأمم احترام الإنسانية التي يعقدون معهم، فهم يعدونهم أناسي مثلهم يعوفون حقوقهم، ويراعون الواجبات نحوهم، والذين ينقضون العهد تسول لهم قوتهم أنه ليس لأحد حقوق قبلهم، ولا يعاملونهم إلا كمن هم دونهم.

أما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النَّحل : ١٢٥]. فيُفسر السعدي(٣٥) الآية بأنها تأمر بأن يكون دعاء الناس جميعًا إلى سبيل الله قائمًا على الحكمة، التي تعني مخاطبة كل فرد بأسلوب يناسب حاله وعقله واستعداده. وتشمل الحكمة البدء بالأهم فالأهم، واستخدام العلم واللين. فإن لم يُجْدِ ذلك، ينتقل الداعي إلى الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب.

أما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النَّحل : ١٢٨] فيقول السعدي(٣٦): والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، أما الإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

وبذا تكون سورة النحل قد جمعت بين الأخلاق الفردية والمجتمعية والإنسانية الشاملة، مؤكدةً على وحدة المعيار الأخلاقي ورفض الازدواجية المعايير الأخلاقية، حيث تُطبّق المبادئ نفسها مع الجميع، بغضّ النظر عن الاختلاف في الدين أو اللغة أو غيرها.

ويُظهر تحليل المؤشرات الأخلاق القيمية لجودة الحياة أن الأخلاق تؤدّي دورًا مزدوجًا؛ فهي تنظّم سلوك الأفراد في تعاملاتهم المتبادلة، كما تُشكّل الإطار القيمي الذي يحكم المجتمعات والدول. وهذا التكامل بين البُعدين الفردي والجماعي يُعزّز انتماء المواطن، ويبني الثقة الاجتماعية، ويرفع من مستوى العطاء والإنتاجية لصالح المجتمع ككل.

(٣٤) أبو زهرة، زهرة التفاسير، مرجع سابق، ج٨، ص٤٢٥٨.

(٣٥) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م، ص٤٥٢. بتصرف.

(٣٦) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص٤٥٢.

ومن اللافت أن هذا النموذج الأخلاقي المتكامل ليس وليدًا حديثًا، بل هو جزءٌ أصيل من الحضارة الإسلامية التي أرسَت منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا نظامًا قيميًا شاملًا يجمع بين الضوابط الذاتية والاجتماعية والإنسانية. فهذه القيم لا تهدف فقط إلى تهذيب السلوك الفردي، بل تتحول إلى قوانين اجتماعية طوعية تهدف إلى استقرار النفس وتماسك المجتمع، مما يجعلها إطارًا مؤسسيًا فعّالًا لتنظيم جودة الحياة البشرية، وتحقيق الطمأنينة الاجتماعية.

ويمكننا قياس مؤشر القيم الأخلاقية من خلال معطيات كمية ونوعية متنوعة، تشمل رصدَ عدد المبادرات الخيرية والتطوعية على مستوى الأفراد والمجموعات، ومدى احترام المواثيق الدولية، بالإضافة إلى تتبّع النسب العكسية لحالات الفساد والجرائم والسرقات وانتهاك الحقوق كأكل أموال الضعفاء واليتامى، وعدد القضايا الناشئة عن المظالم.

وتُشكّل هذه البيانات مجتمعةً مؤشرات دالة على مستوى التزام المجتمع بأخلاقياته، حيث يعكس ارتفاع المؤشرات الإيجابية وانخفاض المؤشرات السلبية بيئةً أخلاقيةً فاعلةً ومستقرةً.

المؤشر الرابع: العمل الصالح.

يشكّل التكامل بين الإيمان بالله، والعلم، والقيم الأخلاقية، ركيزةً أساسيةً للنهوض الحضاري والإنجاز الإنساني. فالمسلم الساعي لجودة الحياة لا يقف عند حدّ تحقيق الرقيّ الروحي والمعنوي، بل يسعى – امتثالًا للتوجيه الرباني – إلى تعمير الأرض، وإتقان العمل؛ لتحقيق حياة مادية متوازنةً في جودتها مع حياته المعنوية، ساعيًا بذلك إلى تحقيق مبتغاه للوصول إلى جودة الحياة (الحياة الطيبة). وهذا المنهج المتوازن يجسّد حكمة قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النَّحل : ٩٧].

لكن الأعمال تختلف ما بين أعمال صالحة نافعة للأمة والإنسانية، وما بين أعمال تضر البشرية جمعاء؛ لذلك جاء الإصلاح بعد العمل السيء كما في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ

تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النَّحل: ١١٩]. ويوضح الطنطاوي الجهالة بقوله: "الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء، وليس المراد بها عدم العلم"(٣٧).

ويبيّن أبو زهرة "أن بعد التوبة بشروطها لا بد معها من العمل الصالح، لأنه لا يزيل عمل السوء إلا العمل الصالح؛ فيحل الخير محل الشر"(٣٨).

ونُلاحظ أن مفهوم العمل في القرآن الكريم جاء شاملًا لكل جهدٍ إنساني هادف، سواء كانت منفعته ذاتيةً بحتة، كتحقيق الفرد لأهدافه الشخصية وضمان رزقه، مما يعزز إحساسه بالإنجاز والمسؤولية، أو كان نفعه عامًا، حيث يساهم في عملية عمارة الأرض والتنمية المجتمعية الشاملة، الهادفة إلى تحقيق الرفاه والسعادة لجميع أفراد المجتمع.

ونستطيع أن نعتمد في تقييم هذا المؤشر على مجموعة من المؤشرات الشاملة من خلال رصد مستوى الإعمار الحضري والتنمية الاجتماعية الذي يعكس درجة الازدهار والاستقرار المجتمعي، مع التأكيد على أن الناتج المحلي الإجمالي – رغم أهميته الاقتصادية – لا يمكن أن يكون المقياس الوحيد أو الكافي لتقييم التقدم الحقيقي للمجتمعات.

المؤشر الخامس: العلاقات الاجتماعية.

الإنسان الذي يمتلك مؤشرات جودة الحياة –من إيمانٍ راسخ، وأخلاقٍ سامية، وعلمٍ نافع، وعملٍ صالح– يحتاج إلى دعمٍ اجتماعي يُعينه ويُشاركه حياته. وقد تجلّت هذه الحاجة الإنسانية منذ بداية الخليقة، حين خلق الله تعالى حواء سَكَنًا لآدم عليه السلام؛ ليدفع عنه الوحشة، ويُقيم أسس الحياة المشتركة. ومن هنا تظهر أهمية الأسرة والأقارب والجيران والأصدقاء على أنها مكونات أساسية للسكن النفسي والاستقرار الاجتماعي. ومن الطبيعي أن يُوجه الفرد الصالح جزءًا من عمله وجهوده لخدمة هذا النسيج الاجتماعي ورعايته؛ تحقيقًا لجودة الحياة التي تجمع بين صلاح الفرد وصلاح المجتمع.

(٣٧) الطنطاوي، التفسير الوسيط، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥٥

(٣٨) أبو زهرة، زهرة التفاسير، مرجع سابق، ج٨، ص٤٢٩٦.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النَّحل : ٧٢].

يُبرز تفسير السعدي(٣٩) للآية الكريمة ثلاثة أبعاد مترابطة للنعم الإلهية: "أولها السكن العاطفي؛ حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقرّ بهم أعينهم، وثانيها: العون والمساندة عبر الأبناء يخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، وثالثها: من الرزق الطيب الذي يشمل جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

والعلاقات الاجتماعية المذكورة تُشكّل نظامًا متكاملًا لمؤشرات جودة الحياة، يتمثل في الرحمة الشاملة والاستقرار النفسي. ويتجلى ذلك بوضوح في قوة الترابط الأسري، حيث يظل الجدّ ضمن أسرته بين أبنائه وأحفاده دون الحاجة إلى دور رعاية المسنين، كما يُحتضن الأيتام داخل نطاق الأسرة نفسها، حيث توفر لهم الرعاية والنفقة والدعم المعنوي. ولا يُعدّ هذا انتقاصًا لدور مؤسسات الرعاية الاجتماعية، ولكن ازدياد أعداد هذه المؤسسات يمكن اعتباره مؤشرًا سلبيًا على ضعف التماسك الأسري وتآكل منظومة الدعم النفسي والمادي داخل الأسر.

ولا يمكن أن تكتمل جودة الحياة إلا بمشاركة الذكر والأنثى على حد سواء قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ [النَّحل : ٩٧]. يقول الطنطاوي في تفسيره(٤٠): يتناول الذكور والإناث للتنصيص على النوعين، حتى يكون أغبط لهما، ولدفع ما قد يُتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم. لذا تُعدّ المرأة عاملًا محوريًا في تحقيق جودة الحياة، ولا يجوز استبعادها، وقد عانت في عصور سابقة من انتقاص حقوقها الأساسية، حتى إن ولادة الأنثى كانت تُلقي بالحزن والعار على أهلها، فتظهر الكراهية واضحةً على وجوههم وسلوكهم. كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النَّحل : ٥٨]

(٣٩) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص٤٤٤.
(٤٠) الطنطاوي، التفسير الوسيط، مرجع سابق، ج٨، ص٢٣١.

ولا يُكتفى بالتهميش والحرمان، بل يتعداه إلى إزهاق الروح، حيث كانت تُمارس عادة وأد البنات بدفنهن أحياءً، وقد بين القرآن الكريم هذا المنكر بقوله تعالى: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النَّحل : ٥٩]

وقد جاء الإسلام ليُحرّم تلك الممارسات الجاهلية، وينهض بوضع المرأة، حيث ضرب الأنبياء –وهم صفوة الخلق– أروع الأمثلة في تكريم البنات والقيام بحقوقهن. وقد أفرد القرآن الكريم مساحات واسعة لبيان حقوق المرأة وتفصيل مكانتها، فالمرأة تشكّل محورًا أساسيًا في أي منظومة حقيقية لجودة الحياة، ولا يمكن تحقيق حياة طيبة ومستدامة دون تمكينها ومشاركتها الكاملة.

أما فيما يتعلق بقياس مؤشرات جودة الحياة المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية، فيمكن قياسها من خلال: مؤشرات الترابط والاستقرار الأسري: مثل نسب الزواج وعدد المواليد، ومؤشرات التفكك الأسري: مثل نسب الطلاق وعدد الأحداث، ومؤشرات الحماية الاجتماعية: ويظهر من خلال حجم الاحتياج لدور رعاية المسنين والأيتام، حيث يشير ارتفاعها إلى ضعف الدعم الأسري العاطفي والمادي، وفي السياق ذاته، يبرز نسبة الوعي المجتمعي بحقوق المرأة الإسلامية كما وردت في النصوص القرآنية والأنموذج النبوي، إذ يعد مؤشرًا معرفيًا وثقافيًا أساسيًا، حيث كلما ارتفعت هذه النسبة انعكس ذلك إيجابًا على الممارسات الأسرية والمجتمعية، وأدى إلى تحسين مؤشرات الترابط الأسري وخفض مؤشرات التفكك.

المؤشر السادس: البيئة(٤١): جعل الله عزّ وجلّ الاستقرار والتمتع بنعمه غايتين أساسيتين لحياة الإنسان، حيث سخّر له مخلوقاتٍ عديدةً لتحقيق هاتين الغايتين. فهي تُلبّي احتياجاته الأساسية من مأكل ومشرب وملبس، وتُمكّنه

(٤١) تناولت العديد من أبحاث الإعجاز العلمي، موضوع البيئة ومكوناتها، مستشهدةً باكتشافات علماء الغرب في هذا المجال. ولو لم يكن القصد اختصار البحث، لكان بالإمكان استعراض أغلب ما كتبه العلماء تفصيلاً وإجمالاً في هذا الموضوع. وللاستزادة، يمكن الرجوع إلى مجموعة من هذه الأبحاث، ومنها على سبيل المثال: حامد عطية، إشارات إعجازية في تكوين لبن الأنعام، وآخرون،

من العمل والإعمار. وتُبرز سورة النحل نماذجَ من هذه المخلوقات المسخّرة التي تُشكّل أدواتٍ فعّالةً في مسيرة حياته نحو تحقيق أهدافه، ومن أبرزها:

- **الأنعام**، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾ [النَّحل : ٥] ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ ﴾ [النَّحل : ٧]﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النَّحل : ٦٦]، وقال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النَّحل : ٨٠] . فهذه الآيات تُجمل حقيقة تسخير الله تعالى الأنعام للإنسان، حيث تُظهر كيف سخّرها له لتحقيق حياة الرفاهية. ويمكن للإنسان أن يستفيد من هذا التسخير في تلبية احتياجاته، سواء في المأكل والمشرب والملبس، أو في الأثاث والتدفئة والنقل وحمل المتاع، وغيرها من وجوه المنفعة التي تُسهل حياته وتُثريها.

ويبين القدومي[٤٢] أن الأنعام هي قوام حياة العرب سابقًا، وهي مالهم، رمز وجاهتهم، وطعامهم من لحومها ولبنها، وكان لباسهم من صوفها وأشعارها، وأوعية سقائهم من جلودها، وركوبهم وتنقلهم، ويظهر هذا جليًا في زمننا بما يسر الله للإنسان من المركبات والطائرات التي تحمل أثقاله، وتنقله أنى شاء على وجه هذه الأرض، ورغم مرور السنين بقيت الأنعام مصدرًا مهمًا للإنسان.

من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم عالم البحار، قطب فرغلي من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم النبات. بالإضافة إلى العديد من المواقع الإلكترونية والترجمات البحثية التي تغطي مختلف مجالات العلوم البيئية.

(٤٢) القدومي، سامي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، دار الوضاح، الأردن – عمان، ص١٥.

- **الماء**، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النَّحل : ١٠] ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النَّحل : ٦٥].

فتُؤكِّد الآيات القرآنية أن الماء نعمةٌ أساسية جعلت الحياة ممكنة على الأرض، فهو سرُّ بقاء جميع الكائنات الحية. وللإنسان فيها حظّ أكبر؛ فهو لا يستغني عنها فقط للبقاء، بل ينتفع بها أيضًا من خلال ما تُنتجه له من نباتٍ وزرعٍ وأشجارٍ تدخل في صميم منافعه الحياتية اليومية.

- **النبات والزرع**، قال تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النَّحل: ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النَّحل : ٦٧].

فالآيات القرآنية تُوضح أنَّ التنوع النباتي والزراعي يُشكِّل مصدرًا أساسيًا لإشباع حاجات الإنسان، فهو يمدُّه بالطاقة الضرورية لممارسة نشاطاته الحياتية والعملية، ويساهم في إثراء خبراته الحسية من خلال تنوع نكهاته، مما يضفي على حياته بهجةً واستمتاعًا. كما يُجسِّد هذا التنوع النباتي مظهرًا من مظاهر الإبداع الإلهي، حيث يتميَّز كل صنف بتركيبته الغنية بالمعادن والفيتامينات المتخصصة، التي تُسهم بشكل فاعل في تعزيز الصحة والحفاظ على الوظائف الحيوية للإنسان.

- **تسخير الأجرام السماوية**، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النَّحل : ١٢].

- تُظهر الآية الكريمة كيف سخّر الله تعالى ما في السموات من أجرامٍ ومدارات، وتقليب الليل والنهار، لخدمة الإنسان ومنفعته. فهي تُضيء له بنور الشمس والقمر، وتُعينه على معرفة الأوقات والتواريخ والمواسم، كما تُرشده في تحديد الطرق والمسارات أثناء أسفاره، وغير ذلك من الفوائد الجليلة التي تُسهّل حياته وتُيسّر شؤونه.

- **البحر**، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النَّحل : ١٤].

تُبرز الآية الكريمة كيف سخّر الله تعالى البحر للإنسان كمصدرٍ عظيمٍ للرزق، حيث يزخر بأنواعٍ متعددةٍ من النعم. ومن أبرزها الأسماك، التي وصفها القرآن بلحمها الطري اللذيذ والمتميّز عن لحوم البرّ، في إشارةٍ إلى حكمة الخالق في إبداع التنوع الغذائي. كما يُستخرج من أعماق البحر أثمن أنواع الحلي كاللؤلؤ والمرجان، مما يجعله مصدرًا متكاملًا يجمع بين الغذاء والزينة، ويعكس سعة رحمة الله بتنوّع عطاياه.

- **الجبال والأنهار**، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النَّحل : ١٥]. فالرواسي ـ هي الجبال الثابتة ـ التي تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصد الرياح المحملة ببخار الماء، فيصعد إلى أعلى، فيبرد فيتكاثف، فينزل إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار التي تسقي الزروع، فتنتج الثمار، ومن هنا نرى ذكر الأنهار بعد الرواسي، ومن بعد الأنهار الثمار، ليس مجرد تعدد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك (ترابط علمي) بينهما، وهو ترابط السبب والنتيجة.

فتُشير سورة النحل إلى المظاهر الطبيعية التي جعلها الله علاماتٍ دالةً، وموارد منفعةٍ للإنسان في حياته. فالجبال تُشكل أوتادًا تثبت الأرض، والأنهار تمدّه بالمياه العذبة، والطرق تُسهّل تنقّله وعمله، مما يجعل هذه العناصر أدواتٍ فعّالةً في تسخير البيئة لخدمة مسيرة الإنسان، وتحقيق عمارة الأرض.

٧- الطيور، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النَّحل : ٧٩].

تُبرز الآية القرآنية حقيقة تسخير الطيور للإنسان ضمن النِّعم الكونية، حيث تُعدُّ مصدرًا وظيفيًا وجماليًا متكاملًا. فمن الناحية الوظيفية، تقدم الطيور منفعة غذائية مباشرة عبر لحومها، ومنفعة اتصالية (الحمام الزاجل)، أما جماليًا، فتسهم في إثراء البيئة عبر تشكيلات أسرابها المهاجرة، وقدراتها الحركية الفريدة، وتنوع أصواتها الذي يُضفي حيويةً على المحيط. ويعكس هذا التسخير التكامل بين المنفعة العملية والقيمة الجمالية في التصور القرآني لجودة الحياة.

أما قوله تعالى: ﴿ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النَّحل : ٨] فيذكر الطنطاوي في تفسيره(٤٣): "أن الله تعالى يخلق – باستمرار – أنواعًا من المخلوقات لا يعلمها البشر، غير تلك الدوابّ المذكورة. ومن هذه المخلوقات التي أظهرها الله لاحقًا: السفن التي تجري في الماء، والطائرات التي تحلّق في الجو، والسيارات السريعة التي تجوب الأرض. وهي جميعًا مُسخّرة لخدمة الإنسان ومنفعته، وفق علم الله وحكمته. ويضيف بقوله "فقد أوجد– سبحانه– العقول البشرية، التي ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة في البر وفي البحر وفي الجو، والتي لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم".

ويُظهر تحليل مؤشرات البيئة أن الحفاظ عليها والاستفادة المستدامة منها يتطلبان تعاونًا تكامليًا بين الأفراد والمجتمعات، وذلك بتوظيف العقل البشري والعقل الجمعي في الابتكار والصناعة عبر توظيف الموارد الأولية التي أودعها الله في البرّ والبحر. وهذا النهج هو السبيل لضمان استقرار الإنسان وتمتعه بالنعم الإلهية.

أما النظرة المتشائمة التي تعتبر هذه الموارد محدودةً وقابلةً للنفاد، فإنها تمثّل إهدارًا للطاقات العقلية وتعطيلًا لمسيرة البحث العلمي والابتكار، كما تُعدّ سوءَ استغلال للنِعَم التي سخّرها الله تعالى للإنسان والتي لا تُعدّ ولا تُحصى.

ويمكن قياس مؤشر البيئة والتنمية من خلال مجموعة من المعايير الكمية والنوعية، تشمل: حجم المحميات الطبيعية البرية والبحرية، ومساحات الغابات، وعدد الابتكارات والمصانع، وجودة شبكات الطرق والمواصلات والاتصالات، إضافة إلى مستوى التقدم التكنولوجي والرقمي. وتعكس هذه المؤشرات مجتمعةً مدى تأثير البُنية

(٤٣) طنطاوي، التفسير الوسيط، مرجع سابق، ج٨ ، ص١١٠.

التحتية والخدمات على رفاهية الأفراد والمجتمعات، وتُظهر التوازن بين استغلال الموارد والحفاظ على البيئة لتحقيق جودة حياة شاملة ومستدامة.

المؤشر السابع: الصحة.

تُعَدُّ الصحة الجسدية والنفسية والعقلية من النعم الجليلة التي منَّ الله تعالى بها على الإنسان، وهي تُشكِّل محورًا أساسيًا من محاور جودة الحياة. وقد أشارت سورة النحل إلى أن حياة الإنسان تمر بمراحل متعاقبة من القوة والضعف، حيث يبلغ الذروة في مرحلة الشباب، ثم يتراجع تدريجيًا مع التقدم في العمر حتى مرحلة الشيخوخة.

قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ النَّحل : ٧٠] . هذا التغير الطبيعي في مستوى الصحة عبر مراحل العمر المختلفة يؤكّد حكمة الله تعالى في جعل صحة الإنسان أولويةً قصوى يجب صونها ورعايتها.

ولكي يحافظ الإنسان على صحته، أرشده الله تعالى إلى تناول الطَّعام والشَّراب النَّافع، والانتفاع بكلِّ النِّعَم التي خلقها لمساعدته في حياته، فقال تعالى:﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النَّحل : ١١٤].

وعلى الرَّغم من التطور التقني والتكنولوجي الهائل الذي وفَّر للإنسان وسائل راحة وترفيه غير مسبوقة، فإن صحته شهدت تراجعًا كبيرًا، حيث انتشرت الأمراض المزمنة نتيجة تغييرات في أنماط حياته اليومية. وتشمل هذه التغييرات اضطرابات النوم، والخمول البدني، والإقبال على الأطعمة غير الصحية والمواد المصنعة، بالإضافة إلى انتشار المسكرات والمخدرات التي تُروّج لها مصالح تجارية؛ سعيًا لتحقيق أرباح سريعة. والمفارقة أن بعض الأفراد يستمرون في استهلاك هذه المواد الضارة رغم وعيهم التام بعواقبها الصحية. وهنا تبرز حكمة التوجيه القرآني في سورة النحل الذي يدعو إلى تجنب المحرمات التي اعتادها الناس قديمًا، إذ يُعد هذا الابتعاد درعًا وقائيًا يحمي صحة الإنسان

وسلامته في كل عصر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النَّحل : ١١٥].

يقول النابلسي(٤٤): إن في الجسم أجهزة بأعلى مستوى للتصفية، فالكليتان تنقيانه من المواد السامة، والرئتان تنقيانه من الغازات السامة، ولكن إذا ماتت الدابة أصبح الدم موطنًا للجراثيم والأوبئة، لذلك فالشيء الذي يلفت النظر أن العالم الغربي بعد أن اكتشفت الجراثيم صدرت القوانين بتحريم الدم، وتحريم لحوم الميتة، بعد أن عرفوا ضرره، ولكن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قبل أكثر من ١٤٠٠ عام حرم علينا الدم المسفوح، وحرم علينا لحم الدابة الميتة.

وتستكمل سورة النحل توجيهاتها بعد ذكر بعض أسباب المرض، فتُورد إشارات عديدة لأسباب الشفاء ووسائله، ومن أبرزها ما ذكره الله تعالى من وجود شرابٍ مختلف الألوان فيه شفاء للناس، كما في قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النَّحل : ٦٩]؛ ليُبيّن أنواع المشروبات النافعة، وما تحمله من خصائص علاجية وغذائية.

ويشير باشا(٤٥) في بحثه "نظرات في آيات النحل" إلى أن النحل ينتج مجموعةً متنوّعةً من المواد ذات القيمة العلاجية، تشمل: العسل، وغذاء الملكات، والشمع، وحبوب اللقاح، والعكبر، وحتى سمّ النحل، وهو ما تؤكده باستمرار الاكتشافات الطبية الحديثة المتزايدة التي تكشف عن فوائد جديدة لهذه المواد في المجال الصحي والدوائي.

(٤٤) النابلسي، محمد راتب، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الناشر: دار المكتبي – سورية – دمشق – الحلبوني – جادة ابن سينا.
الطبعة: الثانية ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.ج٢، ص١٧٨.

(٤٥) باشا، حسان شمسي، نظرات في آيات النحل، الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، س٣٦، ع٤٠٢، ١٩٩٩م، ص٥٠.

وتُعد صحة الإنسان مؤشرًا أساسيًا في قياس جودة الحياة، ويتطلب تحقيقه تكاملًا بين المسؤولية الذاتية للفرد والضمان المؤسسي المجتمعي. فعلى المستوى الشخصي، يتحتم على الفرد تبنّي نظام حياة صحي قائم على اختيار الغذاء النافع، وتجنب الممارسات الضارة. وعلى المستوى المؤسسي، تقع على الدولة مسؤولية وضع نظام رقابي صارم لمراقبة المواد المستهلكة وجودة المنتجات، مع توفير خدمات صحية شاملة ومتاحة. ويُشكّل هذا التكامل بين الوعي الصحي الفردي، والضمان المؤسسي المجتمعي ركيزةً جوهرية لتحقيق مفهوم "الحياة الطيبة" الذي يطرحه التصور القرآني الشامل لجودة الحياة.

ويمكن قياس مؤشر الصحة المجتمعية من خلال محاور رئيسية تشمل: تطوير المنظومة الصحية، وجودة الخدمات الطبية، وفرض رقابة صارمة على المواد الاستهلاكية وتجريم الضار منها، وتوفير البُنى التحتية الداعمة للنشاط البدني مثل الأندية والملاعب، بالإضافة إلى تخصيص دعم مادي وصحي شامل للفئات الضعيفة كذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن. وتُشكّل هذه العناصر جميعًا منظومة متكاملة تعكس مدى جودة الحياة الصحية في المجتمع.

المؤشر الثامن: الجمال.

قال صاحب كتاب "العلم في منظوره الجديد"(٤٦): "يُجمع أبرز علماء الفيزياء في القرن العشرين على أن الجمال هو المقياس الأساسي للحقيقة العلمية" ويضيف: "أن العالم يدرس الطبيعة لأنها جميلة، ولو لم تكن جميلة لما كانت جديرة بأن تعاش "(٤٧).

يقول كانت:" الجمال هو ما يبعث شعورًا بالارتياح والرضا في النفس، وإحساسًا بالمتعة واللذة، ويقول: فالإحساس بلذة الطعام ينتهي بمجرد الانتهاء منه وتحقيق الإشباع، أما اللذة والمتعة الجمالية فإنها لذة دائمة لا يصح عليها مقياس الإشباع"(٤٨).

(٤٦) أغروس، بستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد١٣٤، ص ٤٦-٥١.

(٤٧) المرجع نفسه. ٤٦-٥١.

(٤٨) نقلا عن، أحمد، عزت، الجمال وعلم الجمال، المعرفة، وزارة الثقافة، س٤٧، ع٥٣٨، ٢٠٠٨م، ص٦٢.

ويرتبط مؤشر الجمال ارتباطًا وثيقًا وشاملًا بباقي مؤشرات جودة الحياة ويضيف بُعدًا إضافيًا من الرضا النفسي الداخلي، والسعادة الظاهرة في السلوك والتفاعل مع المجتمع. فالجمال يُشعر الإنسان بالارتياح والطمأنينة، ويحفّزه على التأمل في إبداع الخلق، وهو ما تُبرزه العديد من الآيات في سورة النحل التي تلفت الانتباه إلى مظاهر الجمال في الكون كآية من آيات الله، ودليل على نعمته، ومؤشر لجودة حياة طيبة. منها قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النَّحل : ٦].

ويعرّف أبو زهرة[٤٩] الجمال: "بأنه الصورة التي تكون متناسقة وتؤثر في النفس، وهو يكون في الخلق والتكوين، كما ترى في جمال الأشخاص والصور والمناظر، وتنفعل به النفس في إحساس بالسرور والارتياح".

ويفرّق الأصفهاني[٥٠] بين نوعين من الجمال: أحدهما: جمال يخص الإنسان في نفسه أو بدنه أو فعله. والثاني: ما يوصل منه إلى غيره. وعلى هذا الوجه ما روي عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله جميل يحب الجمال»[٥١] تنبيها أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحب من يختص بذلك".

وهناك جمال آخر وإبداع ألا وهو الاختلاف في الأشكال والألوان كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾ [النَّحل : ١٣]، ويؤكد أبو زهرة[٥٢] أن تسخير الله للكائنات المختلفة الألوان يحوي نعمتين عظيمتين: النعمة الأولى (المنفعة العملية) أن هذا الاختلاف في الألوان يدل على اختلاف الأنواع، وكل نوع له فائدة محددة للإنسان، أما النعمة الثانية فتختص بـ (الجمال النفسي): أن

---

(٤٩) أبو زهرة، زهرة التفاسير، مرجع سابق، ج٨، ص ٤١٣٢.

(٥٠) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ، ص٢٠٢.

(٥١) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح «صحيح مسلم» المحقق: محمد ذهني أفندي وآخرون – الناشر: دار الطباعة العامرة — تركيا عام النشر: ١٣٣٤ هـ، الحديث رقم(٩١) في كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه، ج١، ص٦٥.

(٥٢) أبو زهرة، زهرة التفاسير، مرجع سابق، ج٨، ص٤١٤٣.

تعدد الألوان يُضفي بهجةً على الناظرين، ويجعل الأرض ذات منظر بهيج، وهذا يشمل المعادن كالحديد والنحاس والذهب والفضة، والأحجار كالماس والفحم، ففيها زينة للنفس، وفيها منفعة للحياة.

أما في تفسير معنى الزينة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾ [النَّحل : ٨] فيقول الأصفهاني(٥٣): "والزينة التي تدرك بالبصر التي يعرفها الخاصة والعامة، وإلى الزينة المعقولة التي يختص بمعرفتها الخاصة، وذلك أحكامها وسيرها. وتزيين الله للأشياء قد يكون بإبداعها مزينة، وإيجادها كذلك، وتزيين الناس للشيء: بتزويقهم، أو بقولهم، وهو أن يمدحوه ويذكروه بما يرفع منه". ويقول القرطبي(٥٤): "هذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا، إلا أن الله تعالى- أذِن به لعباده".

والمقصود بالحلية كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ ﴾ [النَّحل : ١٤]، والحلية-بالكسر- اسم لما يتحلى به الناس. يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلي، أي: ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم، كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما(٥٥).

ويُمثل الاهتمام بالزينة والتجمل تجسيدًا عمليًا لمؤشر الجمال الذي أودعه الله في الكون، وجعله دليلًا على حُبِّهِ للإبداع والبهاء. فكما زين السماوات والأرض والبحار بمظاهر الجمال، فقد وجه الإنسان لاكتساب هذا الجمال في حياته اليومية، من خلال الاعتناء بمظهره الشخصي، وتحسين بيئة مسكنه وعمله، وإضفاء لمسات جمالية على محيطه المادي. وهذا الاهتمام ليس ترفًا، بل هو وسيلة لتحقيق الطمأنينة النفسية، وإضفاء الرونق على الحياة، مما يجعلها انعكاسًا متناغمًا لجمال الخلق، ومصدرًا للبهجة والارتياح الداخلي.

(٥٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، ص ٣٩٠.

(٥٤) القرطبي أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ج ١٠ ص ٧١

(٥٥) طنطاوي، التفسير الوسيط، مرجع سابق، ج٨، ص١١٨.

ويُعتبر الجمال مؤشرًا مركبًا يجمع بين البُعد الذاتي (الزينة والحلي) والبُعد الموضوعي (المظاهر الملموسة)، وهو نتاج جهدٍ مشترك بين الأفراد والمجتمعات في صياغة بيئتهم الحياتية.

ويمكن قياس هذا المؤشر من خلال مؤشرات كمية ونوعية، مثل: جمالية التصاميم العمرانية المعتمدة على الأشكال الهندسية الإبداعية والألوان المستوحاة من البيئة والتراث، ومدى توفر المساحات الخضراء كالحدائق والغابات التي تُعزز رفاهية الأسر، وروعة التصميم في المباني العامة كالأسواق والمساجد، والاهتمام بتزيين الطرق بزراعة النباتات العطرية والزهور وغيرها الكثير. وتُقاس المؤشرات السلبية لجودة البيئة عبر رصد مستويات التلوث في الأنظمة البيئية الثلاثة الأساسية: جودة الهواء، والنظام المائي (نقاء المياه السطحية والجوفية)، والنظام الأرضي (معدلات التصحر).

المطلب الثالث: مؤشرات جودة الحياة وفق المعايير الدولية.

أولًا: منظمة الصحة العالمية:(٥٦)

كانت أول منظمة دولية تقدم أداة معيارية متعددة الثقافات لقياس جودة الحياة –تم تطوير أداة WHOQOL-١٠٠ عام ١٩٩٥–١٩٩٨م، ثم النسخة المختصرة WHOQOL-BREF. وطُورت عبر تعاون دولي في أكثر من خمسة عشر مركزًا ثقافيًا، وتم اختبارها ميدانيًا في ٣٧ دولة، وتُرجمت إلى ٢٩ لغة، مما يدل أنها استُخدمت في عشرات الدول عبر القارات المختلفة (أوروبا، آسيا، إفريقيا، أمريكا اللاتينية). وفي هذا دلالة واضحة على توسعه وانتشاره بين كثير من دول العالم.

(٥٦) محتويات تقرير منظمة الصحة العالمية (WHO)، منظمة الصحة العالمية – مؤشرات جودة الحياة (WHOQOL).
١. مقدمة حول مؤشرات جودة الحياة (WHOQOL)، كتيب تم ترجمته للغة العربية نسخة من الكتيب باللغة الأصلية Microsoft Word - WHOQOLUserManual.doc سأركز على المفاهيم الأساسية، المؤشرات.

وكان الهدف منها تقييم إدراك الأفراد لمكانتهم في الحياة ضمن سياق ثقافي وقيمي، بالنظر إلى أهدافهم وتوقعاتهم ومعاييرهم، ووضعت تفاصيل لهذه المؤشرات لقياسها على الأفراد والمجتمعات:

أولًا: الصحة الجسدية: وتشتمل على الألم والانزعاج، الطاقة والإرهاق، النوم والراحة، الوظائف الحسية، النشاط الجنسي.

ثانيًا: الصحة النفسية: وتشتمل على المشاعر الإيجابية، التفكير والتعلم والذاكرة والتركيز، تقدير الذات، صورة الجسد والمظهر والمشاعر السلبية.

ثالثًا: العلاقات الاجتماعية: وتشتمل على العلاقات الشخصية، الدعم الاجتماعي، والأنشطة كمعيل أو داعم.

رابعًا: البيئة: وتشتمل على الحرية والأمان الشخصي، البيئة المنزلية، الرضا عن العمل، الموارد المالية، الرعاية الصحية والاجتماعية (الوصول والجودة)، فرص التعلم واكتساب المهارات، المشاركة في الأنشطة الترفيهية البيئة الفيزيائية (التلوث، الضوضاء، المناخ)، والنقل.

خامسًا: الاستقلالية: وتشتمل على الحركة، أنشطة الحياة اليومية الاعتماد على الأدوية أو الأدوات الطبية، والقدرة على العمل.

سادسا: المعتقدات الروحانية: الإيمان، الدين، المعتقدات الشخصية كجزء من جودة الحياة.

وقد أظهرت نتائج قياس مؤشرات منظمة الصحة العالمية تميزًا واضحًا لكل من الدول الإسكندنافية واليابان، وإن اختلفت أسباب هذا التميز. فقد سجلت الدول الإسكندنافية (كالسويد والدنمارك وفنلندا) مستويات عالية في الرضا العام عن الحياة، ويعود ذلك أساسًا إلى نظامها الصحي الشامل، وشبكة الدعم الاجتماعي المتينة، والبيئة النظيفة الآمنة. فيما تميزت اليابان بنتائج استثنائية في الصحة الجسدية وطول العمر، مدفوعةً بنظامها الغذائي الصحي، ورعايتها الصحية المتقدمة، وثقافتها المجتمعية الداعمة.

وقد كشفت النتائج السلبية لقياس مؤشرات منظمة الصحة العالمية عن نمطين متميزين من التحديات: الأول يتمثل في تدني شامل للمؤشرات الأساسية لدى بعض دول إفريقيا جنوب الصحراء؛ حيث تعاني من مستويات متدنية في الصحة والأمن والدخل بسبب تفاقم الفقر، وضعف البنية التحتية، والصراعات المسلحة، أما النمط الثاني فيتجلى في مفارقة ملحوظة في بعض دول أوروبا الشرقية (مثل رومانيا وبلغاريا)، التي تشهد تراجعًا في الرضا عن الحياة على الرغم من تحسن مؤشراتها الاقتصادية نسبيًا، ويعزى ذلك إلى اتساع الفجوة الاجتماعية، وتراجع الثقة في المؤسسات.

ويُظهر استقراء مفهوم جودة الحياة ومؤشراته أن المفهوم الشامل الذي وضعته منظمة الصحة العالمية لم يتحوّل بشكل كافٍ إلى مؤشرات عملية واضحة، سواءً على المستوى العام أو المستوى التفصيلي، مما يشير إلى وجود فجوة بين الإطار النظري والتطبيق القياسي للمؤشرات.

ويُلاحَظ أن منظمة الصحة العالمية تركّز بشكلٍ أساسي على الصحة البشرية (الجسدية والنفسية) كمسارٍ رئيسي لتحقيق جودة الحياة، مما جعل أغلب مؤشراتها التفصيلية تدور في هذا الإطار. وقد أدّى هذا التوجّه إلى تضييق مفهوم جودة الحياة عمليًا، حيث لم تُوفّر المنظمة مؤشراتٍ كافية تعكس الجوانب غير الصحية للحياة، مما يُضعف إمكانية استفادة الأفراد والمجتمعات والدول من هذه المؤشرات في قياس وتطوير جودة الحياة بشكلٍ شامل.

كما يلاحظ أن منظمة الصحة العالمية قد صنّفت مؤشر المعتقدات الدينية في نهاية قائمة مؤشراتها في مختلف إصداراتها، مما يوحي بترتيب أولويّ منخفض مقارنة بالمؤشرات الأخرى. كما يغيب في أدوات القياس التابعة لها أي تفصيل علمي لرصد تأثير الممارسات والقيم الدينية على الصحة النفسية أو السلوك البيئي أو غيرها من أبعاد جودة الحياة، مما يُضعف من شمولية النموذج المقترح في تفسير العوامل المؤثرة في الرفاه البشري.

ويتبيّن من تحليل هذه المؤشرات أنها تعتمد في غالبيتها على التقييم الذاتي للأفراد، وتتسم بتعقيد في التطبيق وتداخل في المفاهيم، حيث تضم ما يقارب ١٠٠ مؤشر تفصيلي. هذا العدد الكبير يؤدي إلى تشتيت التركيز

ويصعّب تحديد المؤشرات الأساسية الفعّالة لقياس جودة الحياة بدقة. بالإضافة إلى ذلك، تتضمن بعض المؤشرات جوانب حساسة قد لا يشعر الأفراد بالارتياح للإفصاح عنها، مما يؤثر على مصداقية البيانات وجودة القياس.

وتظهر النتائج –سواءً كانت إيجابية أو سلبية– ارتباطًا وثيقًا بالتفاصيل الدقيقة لمؤشرات القياس الفرعية، أكثر من ارتباطها بالتكامل الشامل للمؤشرات الستة الرئيسية التي وضعتها منظمة الصحة العالمية. كما يُلاحظ أن تفسير هذه النتائج، في جانبيها الإيجابي والسلبي، لا يزال يركّز بشكلٍ كبير على العامل الصحي، مما قد يُقلّل من الاعتراف بتأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية الأخرى في تشكيل جودة الحياة الحقيقية.

كما تُظهر بيانات موقع منظمة الصحة العالمية إشكالية منهجية مهمة، حيث تُعرِّف المنظمة هذه المؤشرات بأنها "مجرد أداة بحثية" وليست "إطارًا رسميًا للسياسات العامة"[٥٧]. كما يكشف الموقع عن نقص في المتابعة المؤسسية، حيث لا توجد ترجمات محدثة، ولا أدوات قياس مطورة بشكل رسمي من قِبل المنظمة نفسها، مما يشير إلى توقف عمليات التطوير النظامي لهذه المؤشرات.

وتُظهر النتائج علاقة طردية واضحة بين التقدم الاقتصادي للدول وقوة منظومتها الصحية؛ فالدول الغنية تُكرس استثمارات أكبر لتطوير البنى التحتية والخدمات الصحية، بينما تعاني الدول الفقيرة من ضعف في المنظومة الصحية كجزء من أزمة شاملة في البنى التحتية والخدمات الأساسية، مما ينعكس سلبًا على صحة الأفراد وجودة حياتهم.

ثانيًا: منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)[٥٨]:

أول مؤشر دولي شامل يتيح للمواطنين التفاعل واختيار الأبعاد الأكثر أهمية حيث أطلق عام (٢٠١١ م) (OECD Better Life Initiative) لتجاوز قياس التنمية عبر الناتج المحلي الإجمالي فقط. أما التقرير

(٥٧) موقع الصحة العالمية الرسمي، مؤشرات جودة الحياة، WHOQOL – قياس جودة الحياة | منظمة الصحة العالمية.

(٥٨) مراقب بيانات رفاهية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، مؤشر الحياة الأفضل https://www.oecd.org/en/data/tools/well-being-data-monitor/better-life-index.html

(٢٠١٩م) فيناقش كيفية تطوير لوحة مؤشرات الرفاهية (Well-being Dashboard) لتصبح أكثر شمولًا وملاءمة للسياسات.

والهدف منها تقديم أداة تساعد الحكومات والمجتمعات على تقييم جودة الحياة بشكل متعدد الأبعاد. حيث يغطي ١١ بعدًا من الرفاهية الحالية تشمل:

- **الدخل والثروة**: معدل دخل الأسرة، والثروة المالية للأسرة.
- **الوظائف وظروف العمل**: معدل التوظيف، البطالة طويلة الأمد، متوسط الأجور السنوية، أمن الوظيفة.
- **السكن**: عدد الغرف لكل شخص، المساكن بدون خدمات أساسية، جودة المرافق السكنية.
- **الصحة**: متوسط العمر، الصحة المبلغ عنها ذاتيًا.
- **التعليم والمهارات**: التحصيل التعليمي، مهارات الطلاب المعرفية، سنوات التعليم المتوقعة. كفاءات البالغين.
- **البيئة**: تلوث الهواء، الرضا عن جودة المياه.
- **الأمان الشخصي**: معدلات جرائم القتل، ضحايا الاعتداء أو السطو (مُبلغ عنها ذاتيًا).
- **المشاركة المدنية والحوكمة**: الاستشارة في صنع القوانين، المشاركة في التصويت.
- **العلاقات الاجتماعية**: الدعم من الشبكات الاجتماعية.
- **الكفاية الذاتية**: التوازن بين العمل والحياة، الرضا عن الحياة.

وهي مجموعة تضم أكثر من ٨٠ مؤشرًا يتم تحديثها ربع سنويًا ، ويتم تصويرها في هذا المراقب للبيانات(٥٩).كما تسمح للمواطنين باختيار الأبعاد الأكثر أهمية بالنسبة لهم.

ومما يلاحظ على مؤشرات منظمة التعاون الاقتصادي أنها تقيس مؤشرات للرفاهية الحالية تشير إلى ظروف معيشة الناس "هنا والآن" وتشمل الظروف المادية التي تشكل الخيارات الاقتصادية للناس؛ عوامل جودة الحياة، بما في ذلك الصحة والسلامة والمعرفة والمهارات والبيئات؛ والعلاقات المجتمعية، التي تعكس مدى ارتباط الناس وتفاعلهم، وكيف يقضون وقتهم مع الآخرين(٦٠).

كما تقيس مؤشرات للرفاهية المستقبلية: من خلال الموارد اللازمة للحفاظ على الرفاهية عبر الزمن: وبشكل خاص، مخزونات الدول من رأس المال الاقتصادي والطبيعي والبشري والاجتماعي واستثماراتها واستنزافها. ويتم تقييم الرفاهية المستقبلية أيضًا من خلال بعض عوامل المخاطر والمرونة الرئيسية التي قد تؤثر على قيمتها في المستقبل(٦١).

أما عن نتائج قياس مؤشرات الأداء فتظهر النتائج(٦٢):

أن دول شمال أوروبا (مثل النرويج، السويد، الدنمارك): نتائج عالية في معظم الأبعاد، خصوصًا الصحة، الأمان، والرضا عن الحياة، ويعود سبب ذلك إلى – أنظمة رفاه اجتماعي قوية توفر دعمًا شاملًا للمواطنين، تعليم وصحة بجودة عالية ومجانية أو شبه مجانية بيئة نظيفة ومستدامة مع سياسات قوية لحماية المناخ، – مستويات عالية من الثقة المجتمعية والحوكمة الرشيدة.

(٥٩) إطار الرفاهية لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية،مراقب بيانات الرفاهية في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية | منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وتقرير ١ Slide وتقرير ١ Slide

(٦٠) الرفاهية الحالية،الرفاهية الحالية | منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

(٦١) الرفاهية المستقبلية، رفاهية المستقبل | منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

(٦٢) تم ترجمة تقرير OECD حول مستقبل لوحة مؤشرات الرفاهية (Well-being Dashboard ٢٠١٩)،رابط التقرير draft paper for consulation only – please do not cite، *مستقبل لوحة تحكم رفاهية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية: ورقة نقاش*. وموقع المنظمة صفحةالفجوات بين المجموعات | منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

أما دول ذات اقتصاد قوي (مثل سويسرا، كندا، أستراليا): أداء جيد في الدخل والتعليم والصحة مع بعض التحديات في الإسكان أو تكاليف المعيشة.

والدول ذات تفاوت اجتماعي كبير (مثل الولايات المتحدة): رغم ارتفاع الدخل، إلا أن الفجوة الاجتماعية وتكاليف الصحة وضعف التوازن بين العمل والحياة أثرت سلبًا على الرضا العام.

أما دول انتقالية (مثل المكسيك، واليونان) ضعف في مؤشرات البيئة (تلوث الهواء والمياه)، الأمان (ارتفاع معدلات الجريمة أو ضعف الثقة في المؤسسات)، والدخل (البطالة أو انخفاض القوة الشرائية)، مما ينعكس على جودة الحياة بشكل عام.

ويكشف استقراء مؤشرات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عن خلل في التوازن بين الجوانب الموضوعية المجتمعية والجوانب الذاتية الفردية، حيث تميل المؤشرات بشكلٍ واضح نحو قياس العوامل المجتمعية والسياسات العامة على حساب الخبرات الشخصية والرفاه النفسي للأفراد. وهو ما يُظهر أولوية وضع السياسات المجتمعية فوق مراعاة التجارب الذاتية المباشرة للأشخاص في قياس جودة الحياة.

ويُلاحظ من تحليل إطار عمل منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية تجاهلًا للبُعد الاعتقادي والديني كعامل مؤثر في جودة الحياة، حيث لا يُدرَج هذا الجانب ضمن مؤشراتها القياسية. كما يُبرز التطبيق الميداني للإطار محدوديته من خلال اقتصاره على ٣٨ دولة عضوًا فقط، مما يحرم مجتمعات أخرى عديدة من الاستفادة من أدوات القياس والتقييم المتاحة، ويُشير إلى قصور في الشمولية العالمية لنهج المنظمة.

وتُظهر النتائج أن الدول ذات القوة الاقتصادية الكبرى تعاني في كثيرٍ من الأحيان من تفاوتات داخلية حادة في مؤشرات الصحة والتعليم والرضا العام. كما تُبرز صعوبةً في تطبيق مقاييس المنظمة بشكل موحد، وخاصةً فيما يتعلق بالمؤشرات الذاتية، كالرضا عن الحياة، والتوازن بين العمل والحياة، والتي يصعب قياسها كميًا وتعتمد بشكل كبير على السياق الثقافي والاجتماعي لكل مجتمع.

ومع إبداع المنظمة في انتقاء المؤشرات الأكثر صلة باهتمامات الدول والسياسات العامة، فإن هذا يفضي إلى تركيز انتقائي على جوانب محدّدة من جودة الحياة على حساب أخرى. كما أن تضمين الإطار لما يقارب ٨٠ مؤشرًا فرعيًا يُشير إلى تشعّب قد يُضعف الوضوح الاستراتيجي، ويُعقّد عملية التطبيق الفعّال، مما قد يؤثر سلبًا على قدرة الدول على ترجمة هذه المؤشرات إلى سياسات عملية متماسكة.

بالرغم من أن السماح للمواطنين باختيار الأبعاد الأكثر أهمية في جودة الحياة يبدو إيجابيًا من حيث مراعاة الأولويات الشخصية وتجاربهم الفردية، إلا أنه يحمل في طياته خطرًا بالغًا؛ حيث قد يؤدي هذا النهج الانتقائي إلى إهمال أبعاد أساسية أخرى لا تقل أهمية، مما يخلق معيارًا غير متوازن، لا يعكس الاحتياجات الشاملة للمجتمع، ويُنتج في النهاية سياسات تنموية قاصرة عن تحقيق الرفاه الجماعي المتكامل.

ثالثًا: الاتحاد الأوروبي[٦٣]:

في أعقاب أزمة الديون الأوروبية (٢٠٠٩م)، سعى الاتحاد الأوروبي إلى إثبات أن التكامل الأوروبي يحسّن حياة المواطنين بشكل ملموس يتجاوز الإنجازات الاقتصادية فحسب. وقد تجلّى هذا التوجه من خلال إدراكٍ واضح بأن جودة الحياة لا تقتصر على الناتج الاقتصادي ومستويات المعيشة المادية، بل تشمل مجموعة واسعة من العوامل التي تلامس جوهر ما يُقدّره الناس في حياتهم. ومن بين هذه العوامل المؤثرة: التوازن بين العمل والحياة، والحالة الصحية، والعلاقات الاجتماعية، والشعور بالأمن، وجودة الحوكمة.

لذا، وبهدف تحقيق الغاية الرئيسية للاتحاد الأوروبي – وهي ضمان الرفاهية الشاملة لمواطنيه – تم تطوير إطار عملٍ استراتيجي يُضيف إلى المؤشرات الاقتصادية التقليدية مؤشرات نوعية جديدة تقيس هذه الجوانب غير المادية، مما يعكس تحولًا جوهريًا نحو نموذج تنموي أكثر شمولًا وإنسانية.

(٦٣) جودة الحياة، https://ec.europa.eu/eurostat/web/quality-of-life/information-data.

وقد سُمي المؤشر الرسمي للاتحاد الأوروبي "مؤشر جودة الحياة في الاتحاد الأوروبي" (EU Quality of Life Index) أو يُدرج ضمن إطار "أوروبا ٢٠٢٠م" ثم "الخطة الأوروبية للركيزة الاجتماعية". الهدف الرئيسي هو قياس التقدم نحو مجتمع أكثر شمولًا واستدامة داخل الدول الأعضاء. ركز حصريًا على ٢٧ دولةٍ عضوٍ في الاتحاد الأوروبي، مع اهتمام كبير بالفروق الإقليمية الداخلية.

وكانت ثمانية من هذه الأبعاد تتعلق بقدرات الأفراد على السعي لتحقيق رفاهيتهم التي يحددونها بأنفسهم وفقًا لقيمهم وأولوياتهم. أما بُعد "التجربة الشاملة للحياة"، فيشير إلى التصور الشخصي لجودة الحياة، أي الرضا عن الحياة، والمشاعر، ومعنى الحياة، حيث يقيس مؤشرات تبلغ: (٨+١) [٦٤]:

١- الظروف المعيشية: الدخل والاستهلاك (الاستهلاك المقيد، والاستهلاك غير السوقي، والخدمات التي تقدمها الحكومة) الشروط المادية (الحرمان المادي – ظروف السكن).

٢- النشاط الإنتاجي:

أ-كمية التوظيف: التوظيف والبطالة، البطالة الجزئية، نقص فرص العمل.

ب-جودة التوظيف: الدخل ومزايا العمل، الصحة والسلامة في مكان العمل، التوازن بين العمل والحياة، عمل مؤقت، تقييم جودة التوظيف أو نشاط رئيسي آخر.

٣- الرعاية الصحية: متوسط العمر المتوقع، معدل الإصابة بالأمراض، العوامل المؤثرة (السلوكيات الصحية وغير الصحية) الوصول إلى الرعاية الصحية.

٤-التعليم: الكفاءات والمهارات، التحصيل العلمي، المهارات المبلغ عنها ذاتيًا، المهارات المقيمة، التعلم مدى الحياة، فرص التعليم.

(٦٤) قياس جودة الحياة، https://ec.europa.eu/eurostat/web/quality-of-life/information-data .

٥-أوقات الفراغ والتفاعلات الاجتماعية: كمية وقت الفراغ، وجودة أوقات الفراغ، إمكانية الوصول إلى أوقات الفراغ. والتفاعلات الاجتماعية: أنشطة مع الناس، أنشطة للأشخاص، علاقات داعمة، التماسك الاجتماعي.

٦-السلامة الاقتصادية والجسدية: الأمن الاقتصادي والهشاشة، الثروة (الأصول)، دَين، انعدام الأمن المالي (بما في ذلك الوظيفة)، الأمن المادي والشخصي، جريمة، إدراك السلامة الجسدي.

٧-الحوكمة والحقوق الأساسية: المؤسسات والخدمات العامة، الثقة و/أو الرضا في المؤسسات، الثقة و/أو الرضا عن الخدمات العامة، التمييز وتكافؤ الفرص، المواطنة الفعالة.

٨-بيئة طبيعية ومعيشية: التلوث (بما في ذلك الضوضاء)، الوصول إلى المساحات الخضراء والترفيهية، المناظر الطبيعية والبيئة المبنية.

٩-تجربة الحياة بشكل عام: الرضا عن الحياة، يؤثر، المعنى والغرض.

وتظهر نتائج القياس تفصيلًا لكل مؤشر على حدة ومنها:

في المؤشر الأول (الوضع المادي)، عبّر سكان الاتحاد الأوروبي عن رضاهم عن أوضاعهم المالية عام ٢٠٢٢م بمتوسط تقدير ٦,٦ من ١٠، وهو ما يفوق نسبة غير الراضين. أما في عام ٢٠٢٣م، فقد ارتفعت نسبة التعرّض لخطر الفقر بين الأشخاص العزاب الذين يعولون أطفالًا لتصل إلى ٣١,٩٪، مقارنةً بنسبة ١٦,٢٪ بين إجمالي السكان(٦٥)، مما يُظهر فجوة واضحة في الحماية الاقتصادية لهذه الفئة، ويتناقض مع مبدأ العدالة الاجتماعية والمساواة في الاتحاد الأوروبي.

(٦٥) الرضا عن الوضع المادي من عام ٢٠١٣ حتى عام ٢٠٢٢م. https://ec.europa.eu/eurostat/statistics-explained/index.php?title=Quality_of_life_indicators_-_material_living_conditions .

أما بالنسبة لمؤشر البيئة الطبيعية والمعيشية لعام ٢٠٢٣م، فقد أظهرت النتائج تباينًا واضحًا في الإحساس بالمشكلات البيئية بين سكان المدن والريف في دول الاتحاد الأوروبي. حيث أفاد ما يقارب خُمس سكان المدن (٢٠٪) بأن قضايا مثل الأوساخ والتلوث تشكل مصدر إزعاج لأسرهم، بينما بلغت هذه النسبة عُشر سكان المناطق الريفية فقط (١٠٪)[٦٦]، مما يُظهر تفاوتًا في التأثر بالمشكلات البيئية؛ وفقًا لنمط السكن، وعدم تكافؤ في توزيع الخدمات البيئية وجودة المعيشة بين المناطق الحضرية والريفية.

وفيما يخص مؤشر أوقات الفراغ، أظهرت نتائج عام ٢٠٢٢م، أن البالغين الذين يعيشون في أسر لديها أطفال معالون، بالإضافة إلى أن الأفراد الحاصلين على تعليم عالٍ، كانوا أقل رضًا عن مقدار وقت الفراغ المتاح لهم مقارنة بغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى[٦٧]. تحليل هذه النتائج يشير إلى أزمة في التوفيق بين العمل ورعاية الأسرة مما يعكس ضغوط الحياة.

وقد أظهر قياس مؤشر التجربة الشاملة للحياة في الاتحاد الأوروبي عام ٢٠٢٤م أن الأفراد الذين يعيشون في أسر لديها أطفال قد سجلوا متوسط رضًا عن الحياة أعلى مقارنةً بنظرائهم الذين يعيشون في أسر بدون أطفال[٦٨].

ويشير إلى أن وجود الأطفال يعزز الإحساس بالمعنى والرضا لدى الكثيرين في الاتحاد الأوروبي إلا أنه يتناقض مع الذين اشتكوا من عدم توفر أوقات للفراغ بسبب الأطفال.

(٦٦) مؤشرات جودة الحياة – البيئة الطبيعية والبيئة الحية مؤشرات جودة الحياة – البيئة الطبيعية والبيئة المعيشية – شرح الإحصائيات – يوروستات.

(٦٧) مؤشرات جودة الحياة – الترفيه https://ec.europa.eu/eurostat/statistics-explained/index.php?title=Quality_of_life_indicators_-_leisure

(٦٨) https://ec.europa.eu/eurostat/statistics-explained/index.php?title=Quality_of_life_indicators_-_overall_experience_of_life

وتُظهر دراسة مؤشرات جودة الحياة للاتحاد الأوروبي تركيزًا إقليميًا واضحًا، حيث حُصرت في نطاق دول الاتحاد الـ ٢٩ فقط، مما يحدّ من إمكانية تعميمها عالميًا. وعلى الرغم من اشتراك نخبة من الخبراء في صياغة هذه المؤشرات، فإنها تظهر تشابهاً كبيرًا مع إطار منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وهو ما يعزى جزئيًا إلى المشاركة المشتركة لعدد من الباحثين في تطوير النموذجين، مما يُقلل من درجة الابتكار والاستقلالية في المنهجية المتّبعة.

ويُظهر تحليل مؤشرات الاتحاد الأوروبي تركيزًا كبيرًا على الجوانب المادية، مثل الظروف المعيشية المادية والنشاط الإنتاجي، والسلامة الاقتصادية والجسدية، وذلك على الرغم من أن الهدف المعلن للمؤشرات كان تجاوز قياس الناتج المحلي الإجمالي نحو التركيز على الظروف الاجتماعية والسياسية والحوكمة. وهذا التناقض بين الطرح النظري والتطبيق العملي يُضعف من تحقيق الرؤية الشاملة التي يطمح إليها الاتحاد في قياس جودة الحياة.

ومن جانب آخر، يُعدُّ إغفال البُعد الديني والمعتقدات في مؤشرات جودة الحياة قصورًا منهجيًا مهمًا، حيث يفترض هذا النموذج أن العوامل المادية والاجتماعية تكفي لتحديد الرفاه الإنساني، متجاهلًا دور القيم والمعتقدات في تشكيل التجربة الحياتية وإضفاء المعنى عليها. وهو ما يحدّ من قدرة هذه المؤشرات على قياس الجودة الشاملة للحياة.

المبحث الثالث

أوجه التشابه والاختلاف بين مؤشرات جودة الحياة، وفق التصور القرآني والمعايير الدولية

في هذا المبحث، سنقوم بعرض أوجه الاتفاق والاختلاف بين مؤشرات جودة الحياة كما يقدمها التصور القرآني، وكما تحددها المعايير الدولية، وفق النحو التالي:

- **المطلب الأول: من حيث المفهوم:**

يتفق المنظور القرآني مع المعايير الدولية في السعي لتحقيق حياة أفضل للناس، غير أن الاختلاف الجوهري بينهما يتمثّل في أن التصور القرآني يجمع بين هدفين رئيسيين –هما الاستقرار والتمتع بالنعم– لينتهي إلى تحقيق "الحياة الطيبة" كغاية نهائية وشاملة. بينما تتباين أولويات المنظمات الدولية، حيث تضع منظمة الصحة العالمية الفردَ وصحته في مركز الاهتمام، وتُركّز منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية على دور المؤسسات والسياسات العامة في تحقيق الرفاه عبر مجالات متعددة، فيما يسعى الاتحاد الأوروبي إلى نموذجٍ توفيقي يدمج بين حاجات الأفراد وعمل المؤسسات مع ميل نحو المعايير الاقتصادية والمادية.

- **المطلب الثاني: من حيث التكامل:**

يُظهر النموذج القرآني في سورة النحل توازنًا فريدًا بين الجانبين المعنوي (الإيمان، الأخلاق، العلاقات الاجتماعية، الجمال) والمادي (العلم النافع، العمل الصالح، البيئة، الصحة) مما يشكل رؤية متكاملة لجودة الحياة، وتتفق هذه النتيجة مع نتيجة الصباحي إذ بين أن جودة الحياة لا تتحقق إلا من خلال الاهتمام بالبعد الروحي والمادي للشخصية[٦٩]. بينما تنحو المنظمات الدولية في مؤشراتها منحىً أكثر تركيزًا على الجوانب المادية والملموسة، مع إشارات محدودة فقط لبعض الجوانب المعنوية في إطارها القياسي.

(٦٩) الصباحي، يحيى مقبل صالح. "جودة الحياة من منظور القرآن الكريم." مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ع١٨ (٢٠٢٠):ص٦٨.

- **المطلب الثالث: من حيث التنوع:**

يتميز كلّ من التصور القرآني والاتحاد الأوروبي بتنوع مؤشراتهما بين الذاتية (المعتمدة على التجربة الشخصية) والموضوعية (القابلة للقياس المادي). في المقابل، تنحو منظمة الصحة العالمية نحو المؤشرات الذاتية في تقييم الصحة، بينما تتبنى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مقاربةً أكثر موضوعيةً تركّز على السياسات العامة والتنمية المؤسسية.

- **المطلب الرابع: من حيث شمولية التطبيق:**

تتباين نطاقات تطبيق مؤشرات جودة الحياة بين المنظمات الدولية؛ فمنظمة الصحة العالمية تُطبقها على المستوى العالمي مع اهتمام خاص بالدول النامية، في حين تُقيّد منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية تطبيقها بالدول الأعضاء ذات الاقتصادات المتقدمة غالبًا، ويُطبّق الاتحاد الأوروبي مؤشراته داخل حدوده الجغرافية الخاصة. أما التصور القرآني، فيمثل إطارًا نظريًا شاملًا تجسّد تطبيقه التاريخي في التحوّل الحضاري من العصر الجاهلي إلى صدر الإسلام، والذي أسس لمجتمع حقق تقدّمًا بكافة المجالات التطبيقية.

- **المطلب الخامس: من حيث التجديد والمراجعة:**

تختلف سياسات التجديد بين المنظمات الدولية بشكل لافت؛ فقد أوقفت منظمة الصحة العالمية التطوير النظامي لمؤشراتها، واحتفظت بها كأداة بحثية، بينما تُحدِّث منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مؤشراتها سنويًا، ويجري الاتحاد الأوروبي تحديثات ربع سنوية، وسنوية، مع مراجعات شاملة كل ٣-٥ سنوات. ورغم أن هذه الآليات تبدو إيجابية، إلا أنها قد تدل على عدم بلوغ مؤشراتٍ مستقرة ودقيقة لقياس جودة الحياة. أما في الجانب القرآني، فإن استنباط المؤشرات من سورة النحل يظل اجتهادًا قابلًا للإثراء والتطوير، حيث يفتح الباب لباحثين آخرين لإضافة مؤشرات جديدة، وهذا المنهج يتوافق مع القناعة بأن نعم الله –كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل : ١٨]، مما يستدعي التواضع العلمي، والانفتاح على التطوير المستمر.

النتائج والتوصيات

أولًا: النتائج: بناءً على ما سبق، يمكن تلخيص أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة في النقاط التالية:

- يُقدّم النموذج القرآني رؤيةً متكاملةً ومتوازنةً لجودة الحياة، من خلال جمعه بين المؤشرات المادية والمؤشرات المعنوية؛ مما يحقّق التكامل اللازم لبلوغ "الحياة الطيبة".
- يتميّز النموذج القرآني بإدراج مؤشرات معنوية أساسية هي: الإيمان، القيم الأخلاقية، والجمال. بالإضافة إلى تركيزه الكبير على أهمية العلاقات الاجتماعية في تحسين جودة الحياة.
- تقتصر مؤشرات جودة الحياة لدى المنظمات الدولية (مثل منظمة الصحة العالمية، والتعاون الاقتصادي والتنمية، والاتحاد الأوروبي) على نطاق الدول الأعضاء، وغالبًا ما ترتبط بمعايير اقتصادية. بينما يُقدّم النموذج القرآني مؤشرات شاملةً موجّهة للإنسانية جمعاء، دون تقييد بحدود جغرافية أو اقتصادية.
- تتفق جميع النماذج (القرآني والدولي) على مؤشرات أساسية مشتركة مثل: الصحة، العلم، العمل، البيئة، والعلاقات الاجتماعية. لكنها تختلف في تفصيلاتها الداخلية، وفي أولوياتها؛ حيث يركز كل نموذج على جوانب معينة أكثر من غيرها.

ثانيًا: التوصيات التي توصل إليها البحث:

يُوصى بما يلي:

أولًا: تعميق الدراسات المقارنة بين الرؤية القرآنية والفكر الغربي عبر تحليل كل مؤشر من مؤشرات جودة الحياة، وذلك من خلال إعداد مصفوفة مقارنة تفصيلية لكل مؤشر من مؤشرات جودة الحياة، وبمشاركة فريق بحثي متخصص يجمع بين الشرعي والاجتماعي والاقتصادي.

ثانيًا: تطوير نموذج مستلهم من التصور القرآني في سورة النحل، ومزود بأدوات القياس الدولية، ليكون أكثر شمولًا وقابليةً للتطبيق للحصول على جودة حياة مستدامة.

ثالثًا: يوصي البحث بالحرص على قياس جودة الحياة في المجتمعات المسلمة باستخدام مؤشرات تستمدّ من قيمها الإسلامية وأولوياتها الحضارية، لضمان التقييم الشامل والمنصف.

وذلك من خلال إعداد مصفوفة مقارنة تفصيلية لكل مؤشر من مؤشرات جودة الحياة، وبمشاركة فريق بحثي متخصص يجمع بين الشرعي والاجتماعي والاقتصادي.

المراجع والمصادر

١. ابن عاشور، محمد الطاهر(١٣٩٣ هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤ م،١٤٠٤ هـ.

٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٠٠ – ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

٣. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٤. أبو العزم، عبد الغني، معجم الغني، معجم المغني – المجلد ١ – جامع الكتب الإسلامية، (د.ت).

٥. أبو زهرة، محمد بن أحمد، زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي(د.ت).

٦. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

٧. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت ١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م.

٨. الشمري، عياده بن عبدالله خالد العياده. "أبعاد جودة الحياة في ضوء نظرة الإسلام للإنسان وللحياة." مجلة الآداب للدراسات النفسية والتربوية مج٥, ع٤، ٢٠٢٣م.

٩. الصباحي، يحيى مقبل صالح. "جودة الحياة من منظور القرآن الكريم." مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ع١٨، ٢٠٢٠م.

١٠. القدومي، سامي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، دار الوضاح، الأردن – عمان(د.ت).

١١. القرطبي أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م.

١٢. النابلسي، محمد راتب، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الناشر: دار المكتبي – سورية – دمشق – الحلبوني – جادة ابن سينا، الطبعة: الثانية ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٣. أحمد، عزت، الجمال وعلم الجمال، المعرفة، وزارة الثقافة، س٤٧، ع٥٣٨، ٢٠٠٨م.

١٤. أغروس، بستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد١٣٤.

١٥. باشا، حسان شمسي، نظرات في آيات النحل، الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، س٣٦، ع٤٠٢، ١٩٩٩م.

١٦. بن داودية، أحمد، الجودة من منظور إسلامي، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، المجلس العام للبنوك والمؤسسات المالية الإسلامية، ع٩٥، ٢٠٢٠م.

١٧. حموني، فاطمة. "جودة الحياة ومعاييرها الإسلامية." مجلة المعيار مج٢٥, ع٥٨، ٢٠٢١م، غير منشورة.

١٨. طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ – ١٩٩٨م.

١٩. عبد السلام، محمد، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، النور للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.

٢٠. عبيدات، ذوقان؛ وعدس، عبد الرحمن؛ وعبد الحق، كايد. البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه (ط. ٢٠). عمّان، الأردن: دار الفكر للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠.

٢١. علي، كوثر عبدالله، التأصيل للجودة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مجلة البحث العلمي للآداب، جامعة عين شمس– كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، ع٢٠، ج٩، ٢٠١٩م.

٢٢. عمر، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤ هـ) بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصر،الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٣. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح «صحيح مسلم» المحقق: محمد ذهني أفندي وآخرون – الناشر: دار الطباعة العامرة – تركيا عام النشر: ١٣٣٤ هـ.

٢٤. نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط –مجمع اللغة العربية – بالقاهرة، ط٢، كُتبَتْ مقدمتُها ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م.

المواقع الإلكترونية:

١. الاسكوا، الأمم المتحدة، المصطلح، https://www.unescwa.org

٢. الاتحاد الأوروبي، جودة الحياة، فئة: جودة الحياة.

٣. منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، https://www.oecd.org

٤. منظمة الصحة العالمية، جودة الحياة، https://www.who.int/tools/whoqol

٥. منظمة اليونسكو الموضوعية للثقافة في أجندة ٢٠٣٠، مركز التراث العالمي – الثقافة، مؤشرات ٢٠٣٠.

الكتب الإلكترونية

– مقدمة حول مؤشرات جودة الحياة (WHOQOL)، كتيب تم ترجمته للغة العربية نسخة من الكتيب باللغة الأصلية Microsoft Word - WHOQOLUserManual.doc سأركز على المفاهيم الأساسية، المؤشرات.

– حول مستقبل لوحة مؤشرات الرفاهية تقرير تم ترجمته OECD (Well-being Dashboard ٢٠١٩)،رابط التقرير draft paper for consultation only – please do not cite، مستقبل لوحة تحكم رفاهية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية: ورقة نقاش. وموقع المنظمة صفحة الفجوات بين المجموعات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.